



32101 019310851

فاتحة العلوم

تأليف الامام الحجة أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي

المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قدس الله روحه ونور ضريحه

ويليه

خلاصة المفهوم في تخریج أحاديث فاتحة العلوم

بياع بمكتبة

محمود علي صبيح : دافيد محمد

بميدان الازهر بمصر

مطبعة الاتحاد الصيفية بولن جارة الزوية بالحيطة بمصر

al-Ghazzālī

كتاب

Fatihat al-ʿUlūm

فاتحة العلوم

تأليف الامام الحجة أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي
المتوفي سنة ٥٠٥ قدس الله روحه ونور ضريحه

حبيب ويليته

(خلاصة المفهوم في تخرج أحاديث فاتحة العلوم)
جمع الفقير اليه تعالى محمد أمين الخانجي



الطبعة الأولى

بمعرفة السادات أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي وأخيه
سنة ١٣٢٢ هجرية

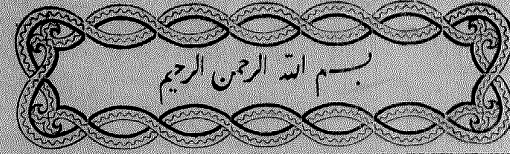
طبع بالمطبعة الحسينية المصرية

بمحور مسجد الامام الحسين رضي الله تعالى عنه
مدير ادارة محمد اندي عبد اللطيف الخليل

بالله شريفاً يبنى ويتكم ومن عنده علم الكتاب* ثم خصص أهل العلم بالهداية المطلقة فقال في قصة قارون* (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير)* وأصل الهداية والمعرفة الاطلاع على ان زخارف الدنيا وزينتها متاع الفرور وان الآخرة هي دار القرار وهذه المعرفة يختص بها أهل العلم لان هذه المعرفة تستفاد من الآيات الدالة عليها والآيات انما تبين عند أهل العلم قال الله تعالى* (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)* ثم خصصهم سبحانه وتعالى باماطة نظلمات الجهل عن قلوب الخلق كافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى* (ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)* ثم خصصهم الله سبحانه وتعالى بالحفصة التي هي رأس الحكمة فقال تعالى* (انما يحشى الله من عباده العلماء)* ولاجل هذا الخواص أوجب الله تعالى لهم المحبة فأوحى الى ابراهيم عليه السلام يا ابراهيم اني علم أحب كل عليم خصصهم بالمحبة ونبه على سببه وهو الموافقة في الصفة وهو من أدل الأمور على علو الرتبة ثم خصص رسول الله صلى الله عليه وسلم البركة بالعلم (فقال) اذا أتى على يوم لا ازداد فيه علماً يقرئني الى الله زلفى فلا يورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم (وقال أيضاً) يستغفر للعالم ما في السموات والارض* فاحال قومهم مشغولون بأنفسهم والملائكة مشغولون بالاستغفار لهم ثم فضل العلماء على العباد (فقال) فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي (وقال) يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء* فاعظم برتبة هي تنو الثبوة وفوق الشهادة

(الفصل الثاني في فضيلة طلب العلم)

اعلم ان العالم غير مختص بالرتبة والفضيلة بل طالب العلم وهو يمد في طلب العلم وان لم يظفر به له من الرتبة والفضل العظيم ما يعظم قدره (فقد روي) عن كثير بن قيس انه قال آتيت أبا الدرداء وهو جالس في مسجد دمشق فقلت يا أبا الدرداء اني جيتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب حديث بلغني عنك انك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماجأت بك حاجة ولا جاء بك تجارة ولا جاء بك الا هذا الحديث قال قلت نعم قال فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول) من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى المحيطان في جوف الماء وان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما



الحمد لله الذي يذكره يفتح كل كتاب والصلاة والسلام على رسوله الذي بالصلاة عليه يجتمع كل خطاب وعلى آله وأصحابه الذين بأثوارهم يجلي عن وجه الحق كل سحاب وينكشف كل حجاب (أما بعد) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلقوا بأخلاق الله تعالى* فالتأدب بآداب الله من أعلا مقامات المقرين وقد صدر الله كتابه العزيز بسورة وسماها فاتحة الكتاب فأحينا الأقداء به وصدرنا العلوم بكتاب سميناه (فاتحة العلوم) نذكر فيه شرائط العلم وفضائله ولوازمه ولواحقه وآفاته وغوائله وآدابه وفرائضه وسيرة علماء السلف وعلامات علماء الدنيا وعلماء الآخرة وينكشف ذلك في سبعة أبواب (الباب الاول) في فضيلة العلم (الباب الثاني) في تصحيح النية في طلب العلم (الباب الثالث) في العلامات الفاصلة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة (الباب الرابع) في العلوم المهمة وأقسامها (الباب الخامس) في شروط المناظرة وآفاتها (الباب السادس) في آداب المعلم والمتعلم (الباب السابع) فيما يحل أخذه من أموال السلاطين للعلماء

(الباب الاول في فضيلة العلم ومذمة علماء السوء وفيه خمسة فصول)

(الفصل الاول في فضيلة العلم)

قال الله تعالى* (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط)* الآية نصب سبحانه كلمة التوحيد مقصداً للإثبات ثم استشهد عليها بذاته ونفى بملائكته وثالث بأهل العلم من عباده وناهيك به شرفاً وفضلاً وجلالة ونبلاً فان نظرنا الى المشهود به فهو كلمة التوحيد وهي أعلا الكلمات ورأس السعادات وأساس العبادات وان نظرنا الى المستشهد فهو الله سبحانه وتعالى وان نظرنا الى رفقائهم في الشهادة فهو الله تعالى وملائكته ثم ان الله تعالى زاد عليه فرفع الواسطة من الوسط وبين ان الاكتفاء حاصل في مجرد الشهادتين بشهادة الله تعالى وشهادة أهل العلم فقال* (قل كفى

وانما ورنوا العلم فمن أخذ فقد أخذ بحظ وافر (وقد قال) صلى الله عليه وسلم * ما عبد الله بشئ أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شئ عماد وعماد الدين الفقه (وقال) صلى الله عليه وسلم لان تعدو فتسلم بابا من العلم خير لك من صلاة مائة ركعة * وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه انه قال قال صلى الله عليه وسلم حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ومن عيادة ألف مريض ومن شهود ألف جنازة فليل ومن قراءة القرآن فقال وهل ينفع القرآن الا بالعلم

(الفصل الثالث في فضيلة الارشاد والتعليم)

قد رفع الله سبحانه وتعالى درجة العلماء المسلمين الداعين الى الله سبحانه وتعالى وإلى طريقه فقال في معرض الاستطاق والتقرر (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين) وقال لرسوله * (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) * وأمتن على عبادي بأن بعث فيهم معلماً فقال * (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) * ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما دأب اليه النبي (فقال له) لأن يهدي الله تعالى بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها (وقال صلى الله عليه وسلم) يقال يوم القيامة للماعدين والمجاهدين ادخلوا الجنة فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا واجهدوا فيقول الله تعالى لهم أتممت عندى كبر ما لا تكتفى اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة (وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير) (وخرج) صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجاهدين أحدهما يدعو الله تعالى ويرغبون إليه والثاني يعلمون أناس (فقال) صلى الله عليه وسلم أما هؤلاء فيستولون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما هؤلاء فانهم يعلمون الناس وانما بعثت معلماً وعدل اليهم وجلس معهم * ولقد خصص الله تعالى العالم العامل المرشد بانظم الانساب على أشرف الابواب * قال عيسى عليه السلام من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء وهذه نهاية الاجلال والتعظيم (وقال) صلى الله عليه وسلم من حفظ على أمتي أربعين حديثاً فيما ينفعهم من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة من العلماء وفضل العالم على العابد سبعون درجة الله أعلم ما بين كل درجتين * هذا كله في انبثاق فضيلة العلم والتعليم من حيث النقل ولذا ذكر شواهد العقلية

(الفصل الرابع في بيان شرف العلم والتعليم من حيث الشواهد العقلية)

فتقول كيف يخفى فضل العلم وشرفه على العاقل والفضل عبارة عن الزيادة والزيادة

تتوجه الى الكمال والكمال هو الغاية المطلوبة بالزيادة والفضل والعلم كال على الاطلاق لا بالاضافة فان الشئ قد يكون كالا بالاضافة كشدة العدو للفرس فانه كمال للفرس بالاضافة الى الحمار وقوة الحمل فانها كمال له بالاضافة الى الحمار والسواد قد يكون كالا بالاضافة الى الشعر مثلاً وهو نقصان بالاضافة الى الوجه والعلم كمال مطلقاً لا بالاضافة فانه صفة الله تعالى الذي تمتدح بها وصفة الملائكة وبها قرب الملائكة من الله تعالى وقرب العبد منه وكال آدمي في قرب من الله تعالى وقربه بالصفات لا بالمكان وانما يقرب بصفة العلم فما دام علمه أكمل وأكثر فهو من الله أقرب وملائكته أشبه حتى ان شدة العدو كمال في حق الفرس لا في حق آدمي من حيث انه آدمي والعلم كمال في حق آدمي والبهائم جميعاً بحسب ما يليق به حتى ان الكيس من الفرس خير من البليد وحتى ان أغنياء المفلون والعرب يوقرون بالطبع مشايخهم لاستشارتهم منزلة علمهم بسبب زيادة التجربة بل تكاد البهيمة تشعر بكمال العلم فان أعظم الحيوانات شكلاً وقوة اذا رأى آدمي يهاجمه ويحاذره لشعورها بتميز آدمي وبكمالها مجاوز لدرجتها - وأما فضيلة التعلم والتعليم - فبين من فضيلة العلم فان العلم اذا كان أفضل الامور كان تعلمه طلباً للأفضل وتعليمه افادة للأفضل وبيانه ان مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين الا بنظام الدنيا فان الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة الى الله تعالى لمن اتخذها آلة وممر ولم يتخذها وطناً ومستقراً وليس ينظم أمر الدنيا الا باعمال الآدميين وأعمالهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام (أحدها) أصول لاقوام للعالم دونها وهي أربعة الزراعة وهي للمعظم والحياكة وهي للملبس والبناء وهي للمسكن والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب الميشة وضبطها (القسم الثاني) ماهي مهياة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحداثة فانها تخدم الزراعة وحمة من الصناعات باعداد آلاتها وكالحلاجة والنزل فانها تخدم الحياكة باعداد محملها (القسم الثالث) ماهي مزيينة للأصول ومزينة لها كالطحن والحزب للزراعة وكالتصارة والحياطة للحياكة وذلك بالاضافة الى قوام العالم الارضى مثل أجزاء الشخص آدمي بالاضافة اليه فانها ثلاثة أضرب (أما أصول) كالقلب والكبد والدماغ فهي الاعضاء الرئيسة (وأما خادمة لها) كالعدة والعروق والشرابين والاعصاب والأوردة (وأما مكملة ومزينة) كالانظار والاصابع والحاجبين وأشرف هذه الصناعات أصولها الاربعة وأشرف الاربعة السياسة لتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال مالا

وانما ورثوا العلم فمن اخذ فمقدأخذ بحظ وافر (وقد قال) صلى الله عليه وسلم * ما عبد الله بشئ افضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شئ عماد وعماد الدين الفقه (وقال) صلى الله عليه وسلم لان تعدو فتسلم بابا من العلم خير لك من صلاة مائة ركعة * وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه انه قال قال صلى الله عليه وسلم حضور مجلس علم افضل من صلاة ألف ركعة ومن عيادة ألف مريض ومن شهود ألف جنازة فقل ومن قراءة القرآن فقال وهل يتفع القرآن الا بالعلم

(الفصل الثالث في فضيلة الارشاد والتعليم)

قد رفع الله سبحانه وتعالى درجة العلماء المسلمين الداعين الى الله سبحانه وتعالى الى طريقه فقال في معرض الاستنطاق والتقرير (ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال اننى من المسلمين) وقال لرسوله * (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) * وامتث على عبادته بان يث فيهم معلما فقال * (هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) * ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ الى اليمن (فقال له) لأن يهدي الله تعالى بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها (وقال صلى الله عليه وسلم) يقال يوم القيامة للعابدین والمجاهدين ادخلوا الجنة فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا فيقول الله تعالى لهم اتم عندى كبر ملائكتى اشفعوا اشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة (وقال) صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى وملائكته وأهل السموات والارض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير (وخرج) صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله تعالى ويرغبون اليه والثاني يعلمون الناس (فقال) صلى الله عليه وسلم أما هؤلاء فيسئلون الله تعالى فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما هؤلاء فانهم يعلمون الناس وانما بعثت معلما وعدل اليهم وجلس معهم * ولقد خصص الله تعالى العالم العامل المرشد باعظم الالقباب على أشرف الابواب * قال عيسى عليه السلام من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء وهذه نهاية الاجال والتعظيم (وقال) صلى الله عليه وسلم من حفظ على أمتي حديثا فيها ينفعهم من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة من العلماء وفضل العالم على العابد سبعون درجة الله أعلم ما بين كل درجتين * هذا كله في اثبات فضيلة العلم والتعليم من حيث النقل ولذا ذكر شواهد العقلية

(الفصل الرابع في بيان شرف العلم والتعليم من حيث الشواهد العقلية)

فنقول كيف يخفى فضل العلم وشرفه على العاقل والفضل عبارة عن الزيادة والزيادة

تتوجه الى الكمال والكمال هو النسيبة المطلوبة بالزيادة والفضل والعلم كمال على الاطلاق لا بالاضافة فان الشئ قد يكون كالا بالاضافة كسدة العدو للفرس فانه كمال للفرس بالاضافة الى الحمار وقوة الجمل فانها كمال له بالاضافة الى الحمار والسواد قد يكون كالا بالاضافة الى الشعر مثلا وهو نقصان بالاضافة الى الوجه والعلم كمال مطلقا لا بالاضافة فانه صفة الله تعالى الذى تمتدح بها وصفة الملائكة وبها قرب الملائكة من الله تعالى وقرب العبد منه وكال آدمي في قرب من الله تعالى وقربه بالصفات لا بالمكان وانما يقرب بصفة العلم فما دام علمه أكمل وأكثر فهو من الله أقرب وملائكته أشبه حتى ان شدة العدو كمال في حق الفرس لافي حق آدمي من حيث انه آدمي والعلم كمال في حق آدمي والبهائم جميعا بحسب ما يليق به حتى ان الكيس من الفرس خير من البليد وحتى ان أغنياء المتول والعرب يوقرون بالطبع مشايخهم لاستشعارهم منزلة علمهم بسبب زيادة التجربة بل تكاد البهيمة تشعر بكمال العلم فان أعظم الحيوانات شكلا وقوة اذا رأى آدمي يهايه ويحاذره لشعورها بتميز آدمي وبكمال مجاوز لدرجتها - وأما فضيلة التعلم والتعليم - فتبين من فضيلة العلم فان العلم اذا كان أفضل الامور كان تعلمه طلبا للأفضل وتعليمه افادة للأفضل وبيانه ان مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين الا بنظام الدنيا فان الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة الى الله تعالى لمن اتخذها آلة وعمرا ولم يتخذها وطنا ومستقرا وليس يتنظم أمر الدنيا الا باعمال الآدميين وأعمالهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام (أحدها) أصول لاقوام للعالم دونها وهي أربعة الزراعة وهي للمطعم والحياكة وهي للعالمس والبناء وهي للعالمسك والسياسة وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها (القسم الثاني) ماهي مهياة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالخداة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها وكالحلاجة والنزل فانها تخدم الحياكة باعداد محملها (القسم الثالث) ماهي منزلة للاصول ومرتبة لها كالطحن والحبز للزراعة وكالتصارة والحياطة للحياكة وذلك بالاضافة الى قوام العالم الارضى مثل أجزاء الشخص آدمي بالاضافة اليه فانها ثلاثة أضرب (أما أصول) كالقلب والكبد والدماغ فهي الاعضاء الرئيسة (وأما خادمة لها) كالعدة والعروق والشرابين والاعصاب والأوردة (وأما مكمة ومنزلة) كالانظار والاصابع والحاجبين وأشرف هذه الصناعات أصولها الاربعة وأشرف الاربعة السياسة للتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال مالا

يستعجبه غيرها ولذلك من يتكفل بها يستخدم سائر الصنائع ويحكمهم عليهم وأعنى
بالسياسة استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى في الدنيا والآخرة وهي
على أربع مراتب (الاولى) وهي العلية سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة
جميعا في ظاهريهم وباطنيهم (الثانية) سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على
الخاصة والعامة جميعا لكن على ظاهريهم لا على باطنيهم (والثالثة) سياسة العلماء بالله
وبدينه الذين هم وريثة الانبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط ولا يرتفع فهم العامة
إلى الاستفادة منهم ولا تنهى قوتهم إلى التصرف في ظاهريهم بالانزاع والمنع (والرابعة)
الوعاظ وحكمهم على مواطن العامة فقط * وأشرف هذه المقامات بعد النبوة إفاضة العلم
وتهذيب نفوس الناس عن الاخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الاخلاق المحمودة
المسعدة وهو المراد بالتعليم وانما قلنا ان هذه أشرف من سائر الصنائع لان شرف
الصنائع يعرف بثلاثة أمور (أما بالالفاظ) إلى الفريضة التي بها يتوصل إلى
معرفة كفضل العلوم الطبيعية العقلية على اللغوية اذ يدرك أحدهما بالعقل والآخر
بالسمع والعقل أشرف من السمع (وأما بالنظر إلى عموم النفع) كفضل الزراعة على
الصياغة وأما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الزراعة اذ تصرف
أحدهما في الذهب وهو أغز الجواهر وتصرف الآخر في جلد الميتة وهو
أخسها وليس يخفى ان العلوم الدينية أعنى فقه طريق الآخرة انما تدرك بكمال العقل
وصفاء الذكاء والعقل أشرف صفات الانسان اذ به يقبل أمانة الله تعالى وبه يصل
إلى جوار الله تعالى وأما عموم النفع فلا يخفى فانه يعم الآخرة والدنيا أما في الآخرة
فتمتته السعادة الابدية والقرب من حضرة الربوبية وأما في الدنيا فالعزة والوقار
ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع فالعالم العامل المعروض عن الدنيا
وأهلها ملك في الدنيا والآخرة لانه يحكم على ملوك الدنيا (فاذا) علم الله سبحانه وتعالى
صدقه في علمه واخلاصه في نيته باقباله على الله تعالى واعراضه عن الخلق التي محبته
في قلوب الملوك وسيسخرهم له حتى يخدموه وهو يرتفع عن استخدامهم وانما العلم
الشرف المعظم هو الذي يعرفه حقارة الدنيا وأهلها فيدعوه من الدنيا إلى الآخرة
ومن غير الله إلى الله ومن الحرص إلى الفئاحة ومن الكبر إلى التواضع ومن استحقار
الفقراء إلى استحقار الاغنياء ومن خدمة الدنيا إلى استخدامها وهذا علم لا يوجد في
كتاب الظاهر والباطن ولا في كتاب الحوالة والضمان ولا في جميع أرباع الفقه التي
شئف أهل الزمان بها وقصر اسم العلم عليها (فاطلبوا) هذا العلم ان كنتم تطالبون بمملكة

الدنيا والآخرة فهذا من حيث النظر إلى عموم نفع العلم (وأما من حيث النظر إلى
المحل الذي فيه التصرف) فأشرف موجود على وجه الارض آدمي وأشرف أجزائه
قلبه الذي هو مطية الايمان والمعرفة والعقل والمعلم المشتغل بالعلم مشتغل بشكليه
ونجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله تعالى فتعاليم العلم من وجه عبادة الله تعالى
ومن وجه خلافة الله تعالى وهي أجل خلافة لان الله تعالى قد قنع على قلب العالم
العلم الذي هو أخص صفاته فهو كالحازن لأنفس خرائثه ثم هو مأذون في الاتفاق
على كل محتاج إليه فآية رتبة أجل من كون العبد واسطة بين الله تعالى وبين خلقه
في تقريبهم من الله تعالى زلفى وسياقهم إلى جنّة المأوى

(الفصل الخامس في مذمة علماء السوء وسوء حالهم عند الله تعالى)

اعلم ان العلم لما عظم شرفه وجلت رتبة عظم أيضا خطره واشتدت آفته فخطر كل
شيء على قدر درجته فخطر الخطيئة في ان تنغرز ابرته في أئمنته وخطر السلطان في انهزام
مملكته بل في روحه ومهجته وكذلك فاعلم ان العالم الذي هو أسعد السعداء هو على
خطر ان يلحق بأشقي الاشقياء وذلك هو العالم الذي لا يعمل بعلمه ويرشدك إلى هذا
قصة بلعام بن باعورا فقد كان من كمال العلم في درجة وصفه الله تعالى في كتابه بانه
آناه آياته فقال * (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) * ثم لما لم يعمل بعلمه ومقتضى الآيات
التي أوتيتها وصفه الله تعالى بالانسلاخ منها واتباع الشيطان والغواية وشبهه بالكلب وهو أخس
الحيوانات وأنجسها فقال * (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) * ثم قال * (ولو
شئنا لرفعناه بها ولكن أخذنا إلى الارض واتبع هواه فنهكه كمثل الكلب ان يحمل عليه
يلهث أو تتركه يلهث) * أي سواء آتيناه الحكمة أو لم نؤته فهو يلهث ويحرص على الدنيا
ولم يذكر في علة غوايته الا انه أخذنا إلى الارض واتبع هواه يعني ركن إلى الدنيا
واطمان إليها وكان غرضه قضاء الشهوة واتباع الهوى وشبه العالم الذي لا يعمل بعلمه
بالحمار وهو أشد الحيوانات حقا وبلادة فقال * (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) *
أي لم يعملوا بها * (كمثل الحمار يحمل أسفارا) * ووصف الله تعالى بالعمى والضلال والحتم
على القلب من كان ضالاه واتباعه الهوى مع العلم فقال * (أفأريت من اتخذ إلهه هواه
وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من
بعد الله أفلا تذكرون) * وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم (فقال) ان أشد الناس
عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه (وقال) من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من
الله الا بعدا * وذكر تفاصيل عذابهم (فقال) يؤتى بالعلم فيلقى في النار فتندلق أقطابه فيدور

بها كاي دور الحمار بالرحى فيطوف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه (وقال) صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسرى بي بقوم كانت تقرض شفاهم بمقاريض من النار كلما قرضت وقت فقلت يا جبريل من هؤلاء فقال خطباء من أمتك يقولون مالا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به * ولاجل هذا عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم وشرهم وبين أن هلاك هذه الأمة يكون على أيديهم (فقال) هلاك أمتي رجالان عالم فاجر وعابد جاهل وخير الخيار خيار العلماء وشر الاشرار شرار العلماء (وقال) صلى الله عليه وسلم أنا من غير الدجال أخوف عابكم من الدجال فقيل ومن ذلك يارسول الله فقال أئمة مصلون * وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى منافق عالم اللسان جاهل القلب (وقال) صلى الله عليه وسلم اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا ينشع ونفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع اللهم انى أعوذ بك من هؤلاء الأربع * وقال عمر رضى الله عنه إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة منافق علم قيل وكيف يكون منافقا علما قال علما اللسان منافق القلب والعمل * وأوحى الله تعالى الى داود يادود ان أدنى ما أفضل بالعالم اذا آثر شهوته على محبتي ان أحرمه لذىذ مناجاتى يادود لا تسأل عنى عالما أسكرته الدنيا أولئك قطاع الطرق على عبادى يادود اذا رأيتنى طالبا فكن له خادما يادود من رد الى هاربا كذبته حميدا ومن كذبته حميدا لم أعذبه أبدا * وقال عيسى عليه السلام مثل علماء سوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لاهى تشرب ولاهى تترك الماء ينحصر الى الزرع ومثل علماء سوء مثل قساة الحش ظاهرها جص وباطنها زن ومثل القبور ظاهرها عطر عامر وباطنها عظام الموتى

الباب الثانى فى تصحيح النية فى طلب العلم

وهو أول واجب على المتعلم والمعلم فان تحصيل العلم عبادة بل هو أفضل العبادات وأصل العبادات كلها النية (قال) صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه (وقال) صلى الله عليه وسلم من غزا وهو يطلب عقالا فله مانوى * فالغزاهى والعالم والمتعلم والمصلى وكل متعبد بشئ فليس له من عبادته الا ما نواه فان نوى عبادة الله تعالى بعلمه لامثال أمره وإبتغاء مرضاته فله مانوى

وان نوى غرضا من أغراض الدنيا فقد فالت العبادة ولم يساوى حاله حال من لم يعمل بل يستوجب به النار فانه انما أراد بالعبادة التى هى لله غير الله فهو كالمتعبد بالله (ومثاله) كمن يتمل بين يدى ملك قائما فى معرض الخدمة وانما غرضه باطنا ملاحظة بعض غلمان الملك وبعض جواريه وما أجدره بالمتق والمقوبة والدليل على ان طالب العلم لغير الله يستوجب النار ولا يجزى رأسا برأس ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه (قال) لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس اليكم فمن فعل ذلك فهو فى النار * وفى المستدرك على الصحيحين نقل هذا الخبر ولكن قال لتماموا به السفهاء أولئك جبروا به المجلس فمن فعل ذلك فالت النار (وفى) خبر آخر من تعلم صرف الكلام ليصرف به وجوه الناس الى نفسه لم يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا * فيفهم من هذا ان من طلب العلم ليكتسب به مالا أو ينال به عند الخلق مرتبة أو جاها أو يستفيد به بين عشيرته وأقاربه عزا أو احتراماً أو يجرس به ماله عن الاطماع وعن اجتياح الظلمة أو ليخفف عن نفسه خراج السلطان أو ليدفع عن نفسه أذى الحيران وتكبر الاقران ومحاسدة الاقارب ومعاداة الاجانب وجميع ما يجرى مجراه من الاغراض سوى ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى وامثال أمره والتقرب منه واحياء دينه وشرعية نبيه فهو عامد بتعلمه متعرض لسخط الله تعالى منخرط فى سلك علماء سوء ومتعرض للوعيد الوارد فى حقهم كما ورد فى حق بلعام بن باعورا حيث وصفه الله تعالى بالنوابة واتباع الشيطان والانسلاخ من آيات الله تعالى وشبهه بالكلب كل ذلك لانه أدخل الى الارض وأتبع هواه وروى ان بعض الحكماء صنف ثلاثمائة وستين تصنيفا فى الحكمة فأوحى الله تعالى الى نبي زمانه قل له انك قد ملأت الارض نفاقا وانى لأقبل من نفاقك شيا وكانه يقصد به انتشار الصيت واتساع الجاه فى أطراف الارض فقد بان بالبرهان القاطع من طريق الثقل والقياس ان من تعلم العلم لغرض من الاغراض سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى فهو عاص ظالم أما من جهة الثقل (فقوله) صلى الله عليه وسلم لا تتعلموا العلم لتباهوا به الناس الحديث ولما روى فى المستدرك على الصحيحين انه (قال) صلى الله عليه وسلم ان أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد أتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها قال قاتلت فى سبيلك حتى استشهدت قال كذبت انما أردت ان يقال فلان جري فقد قيل فيؤمر به فيسحب على وجهه حتى أتى فى النار ورجل تعلم القرآن وقرأ

القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما علمت فيها قال تعلمت العلم وقرأت القرآن وعلمته فيك قال كذبت انما أردت أن يقال فلان عالم قارئ فقد قيل فامر به فيسحب على وجهه حتى أتى في النار ورجل أتاه الله من أنواع المسال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما علمت فيها قال ما تركت من شيء أحب أن ينفق فيه الا أنفقت فيه لك قال كذبت انما أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل فامر به فيسحب على وجهه حتى أتى في النار وأما القياس فهو ان التلم والتعليم عبادة ولا تصح العبادة الا بنية خالصة لله تعالى (مسئلة) فكما علمت ان الطالب غاص بتعلمه اذا قصد غير الله فاعلم ان معلمه اذا علم ذلك من نيته فهو أيضا غاص بتعليمه وهو كبائع سيف من قاطع طريق فكما ان المعلم يصالح لان يتقرب به الى الله تعالى فالسيف يصالح لان يفتزى به ويجاهد به في سبيل الله تعالى فيضرب رقاب اعداء الله تعالى ولكن من علم من قصده انه يريد أن يستعمله في قطع الطريق وايداء المسلمين وقتلهم حرم الهبة والبيع منه فكذلك علماء السوء هم قطاع طريق الدين على عباد الله تعالى وهم أسوء حالا من قطاع طريق الدنيا فان غاية ضررهم نقصان المال وهلاك الدنيا وضرر علماء السوء نقصان الدين وهلاك الآخرة والدنيا قايمة في جنب الدين والمعالجة حقيرة في جنب الآخرة (مسئلة) فان قلت بم يعلم المعلم قصد المتعلم والنية أمر باطن لا يطلع عليه وقد أمرنا بالحكم على الظاهر والله تعالى يتولى السرائر (فاقول) ليس كذلك فان الظاهر عنوان الباطن ورشح الاناء يدل على ما في الاناء والاعمال ورشح النيات وهي دالة على السرائر فاذا رأى المتعلم مكبا على الشهوات متعبا للهوى في المعاملات متكبلا على طلب الدنيا لاعلى المنهاج المباح لم يشك في ان طلب الدنيا واتباع الهوى غالب على باطنه ويتبين ذلك بالضرورة من أعماله وقرائن أحواله بل أزيد عليه (وأقول) مهما اشتغل بعلم هو من فروض الكفايات قبل الفراغ مما هو فرض العين من العلم والعمل وهي تطهير الجوارح عن الاثام وتطهير الباطن عن الصفات المهلكة من الكبر والحسد والرياء والعداوة والبغضاء وسائر الاخلاق المذمومة فذلك يدل على انه يطلب بعلمه الجاه والمال دون سعادة الآخرة فان معرفة الاخلاق الذميمة وتبليغها عن المحمود ومعرفة علاج التنزه منها ثم الاشتغال بالرياضة والمجاهدة التي بها يظهر منها كل ذلك من فروض الاعيان فلا يجوز الاشتغال بمذهب الفقه وخلافه وأصوله قبل الفراغ منه (بل) أزيد على هذا (وأقول) المتفقه اذا ترك الصلاة بالجماعة بغير عذر ظاهر فليس يطلب بالعلم زيادة الدين وسعادة الآخرة والا فماد

يقول مع نفسه أينكر قول النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الجماعة تفضل صلاة التفل بسبع وعشرين درجة * فيكون كافرا بانكاره أو يقربه ولكنه لا يريد هذا الريح ويستحقه فيظهر الحائل في عقله ومن هذا حد عقله متى يطلب زيادة الدين بعلمه (أم) يقول أنا مؤمن به ومريد له ولكن الكسل يمنعني عنه فمن هو أسير الكسل الى هذا الحد كيف يتأتى منه العمل بالعلم وتجرع مرارة التقوى والكف عن الدنيا واتباع الهوى ومن ثمرة العلم وما مقدار التعب الذي يزيد بان يصلى بالجماعة على التعب الذي في الافراد فاذا كان زيادة سبع وعشرين درجة لا يصده عن هذا القدر من الكسل فتى رجبى خيره وتصلح نيته وانما أوردت الصلاة بالجماعة مثلا والا فجميع السنن والرواتب المؤكدة لا تسمح نفس المتعلم لله تعالى بالتهاون بها أصلا (مسئلة) فان قلت اذا علم الاستاذ فساد نية المتعلم فهل يحل له صرف جريئة المتفقه اليه (فاقول) لا يحل له ذلك الا ان اشتغل بالعلم النافع لان الجريئة اعانة على الدين وهذا غاص بتعلمه ولا اعانة على المعصية فهما صلحت نية المتعلم حل له تناوله الجريئة فان فسدت حرم وان كانت صالحة في الاصل ثم خطر له خاطر الرياء وطلب الجاه بالعلم فاللقمة مثلا في فيه انقلبت حراما ووجب عليه ان يلتقي اللقمة ولا يتلعها أو يعود الى التوبة واصلاح النية (مسئلة) فان قلت فان كان المتعلم غاصيا بتعلمه فليجب على المعلم منعه من التعلم لان المنع من المعصية واجب (فاقول) ان كان يشتغل بالتعلم بالعلم النافع الذي يعرفه فساد نيته ويخوفه مغبة أمره وهلاك دينه بسوء سريره ومعاملته فلا يمنعه عنه بل يحثه عليه لان هذا مرض في قلبه وانما علاج هذا المرض هذا النوع من العلم النافع وهو الذي اودعناه كتاب الفاتحة بل كتب الاحياء كلها ومن جعلته علم القرآن وعلم الاخبار وبالجملة كل علم فيه تحذير وانذار (فان) المريض لا يمنع من العلاج فاما ما عدا هذا من العلوم فيجب المنع منه كعلم فقه مذهب وخلافه والاصول والكلام وكل علم خال عن التحذير والانذار وبيان آفات الاعمال وعيوب النفس وبيان خساسة الدنيا وانها متاع الفروور وبيان عظم الدار الآخرة وانها دار القرار فهذه العلوم اذا صادفت قلبا مائلا الى طلب الدنيا زادت فسادا على فساد وهيئات له أسباب الدنيا ودعته الى حجة أهلها والاشتغال بهم بالباهة والمنافسة والرياء والمداينة ونبت فيه بذور الصفات المهلكة من الحسد والرياء والكبر والعداوة والتعصب وسائر الاخلاق الذميمة وليس الخبر كالمعاينة ولهذا حث الله تعالى التل على هذا العلم خاصة فقال «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا

اليهم لعلهم يحذرون» فانظر في العلم الذي فيه الانذار فان كان في اللعان والظهار والسلم والاستتجار فاشتغل به والا فاطلب العلم المنذر ماهو واشتغل به فهو العلم الذي قاله بعض السلف تعلمنا العلم لغير الله فابى العلم الا ان يكون لله فمثل هذا العلم يابى الا ان يكون الا لله وأما سائر العلوم فتكاد تأتي أن تكون الا لغير الله اللهم الا في حق المتخرق في محبة الله تعالى فانه يتبنى في كل علم وعمل وجه الله تعالى وعلى الجملة ليس الخبر كالمعاينة (مسئلة) فان قلت فاذا تقول فيمن قصد بالتعلم وجه الله تعالى والدار الآخرة وهو مع ذلك يقصد العز والوقار وان يكون ذا منصب محترم بين الاقارب والاجانب (فاقول) هذا لم تقتضه اصل النية ولكنه قد فاته الاخلاص وكما ان النية شرط صحة العبادة فكذلك الاخلاص شرط صحة النية وهو كمن يصلي لله تعالى ويقصد مع ذلك ان يرى الخلق صلاته فيعتقدون فيه الزهد والعبادة والورع وينظرون اليه بعين الوقار وقد ورد فيه من الوعيد ما سنذكره في بحث الزيادة ان شاء الله تعالى وقد قال الله تعالى «من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» (قيل) أراد به الاخلاص وان لا يريد بمعملة مع الله غير الله (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله أنا أغنى الاغنياء عن الشرك فمن عمل لي عملا وأشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء (وقد) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل في سبيل الله ليشاب ويحمد فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله * خصص ذلك بالمخلص ومهما امتزجت النية فهل يعتبر الغالب في تصحيحها نظرسنذكره (مسئلة) كما يجب تصحيح النية على المتعلم فيجب تصحيحها أيضا على المعلم بل هو أهم لان عبادة التعلم أشرف من عبادة التعلم ولان فساد المتعلم مقصور عليه وفساد المعلم يسرى الى سائر المتعلمين فان غاية التلميذ التشبه بالاستاذ والافتداء به فزلة العالم زلة عالم وليكن نيته القرب الى الله تعالى باحياء دينه ونشر شريعته ودعوة الهاربين من عبادة اليه والقيام بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصلاح أمته وفي سياهم الى جوار الله تعالى ولا ينبغي أن يقصد به انتشار الصيت وقيام الجاه في قلوب السلاطين وفي قلوب العوام ولا أن يقصد به الاستخدام والاستتباع والتظاهر بكثرة الانصار والاتباع ومباهاة الاقران بكثرة الاصحاب ولا ينبغي أن يمين على تلامذته بتعليمه حتى ينظر منهم ثوابا وجزاء وخدمة وموالاة ونصرة فكل ذلك يفسد نية العبادة بل يقتدى بالانبياء ^ص حيث قدم كل واحد منهم على دعوته قوله (لاأسئلكم عليه أجرا) وتأمل - ورة

الشعراء وحكاية دعوة الانبياء فما ضمنت هذه السورة هذه الحكايات لتسمعها سماع الاسرار بل لتطلع منها على الاسرار فلا يقول أحد من الانبياء لقومه فاقوا الله وأطيعون الا ويقول قبل ذلك (وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاقوا الله وأطيعون) فتصفح هذه القصص في دعوة نوح وابراهيم وموسى وهود ولوط وشعيب وصالح وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين فاخلص النية مقدمة دعوتهم بالكيفية فاذا ان أخلص الاستاذ نيته فهو من علماء الدين والا فهو من علماء السوء يطلب بعبادة الله غير الله ومن علم هذا من أسرار الدين قطعا وراجع نفسه فرأى فيها من نوازع البشرية مارأى فلا يتصور أن يفرح في الدنيا ولهذا قال علماء السلف من ازداد علما ازداد وجلا ومن لا يلزمه الحزن والخوف في أكثر الاحوال فيكاد أن لا يكون من العلماء (فانما يخشى الله من عباده العلماء) وكذلك علماء السلف كانوا فما رؤى الحسن البصري رضى الله عنه الا وكانه انصرف من جنازة عزيز من أعزته لشدة حزنه وخوفه واحتار بجماعة من الصبيان يلعبون فقال العبا فوالله ماقرت عيني منذ فارقتكم (وليت) شعري من علم انه تعبد تطهير قلبه عن هذه التوازع واخلص نيته وعلمه لله تعالى وقد شحن باطنه بهذه التوازع والشهوات وكلف تطهير القاب منها بالرياضة والمجاهدة متى يتفرغ الى أن يهتم بالبحث عن قول من يهذى فيقول ان كان هذا غرابا فزنب طالق وان لم يكن فعمرة طالق ومهما طلقت حفصة فعمرة قبلها طالق ومهما طلقت عمرة فحفصة قبلها طالق لا يفرغ لذلك الا غافل مغرورا ومملك مقرب فرغ من تطهير ظاهره وباطنه وأستأصل مغارس الشهوات بالكيفية من قلبه وجرد قصد الله تعالى وأعرض عن الدنيا بالكيفية وفرغ من نفسه الى غيره فاراد أن يهتم بالوقائع النادرة التي تقع لآحاد المسلمين حتى يعرفهم طريق الشرع فيها وطوبى ان تفرغ لذلك وما أعظم مكانه عند الله تعالى (مسئلة) فان قلت من لا يحضره مثل هذه النية الحاصلة في التدريس والتعليم فهل يلزمه الاعراض عن نشر العلم أم يجب عليه النشر مع فساد النية (فاقول) نشر العلم لغير الله ممصية كالصلاة لغير الله والنزول لغير الله ولكن يفارق الصلاة من حيث انه سبب ترغيب الناس في الطاعة والخير أعنى نشر العلم الداعي الى الخير فانشر العلم النافع هالك في نفسه ولكن يخو ويسعد بسببه خلق كثير ومهما لم يطلعو على فساد نيته (وقد قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم (وقال) ان الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر * فمثل هذا العالم هالك في نفسه فمن أين

ينفعه نجاته غيره فيجب عليه ان كان ينظر لنفسه ان يعرض عن نشر العلم ويشغل
باصلاح قلبه وتصحيح النية بالرياضة فانما يحتاجه في ذلك (اما) اذا سئلنا عن ذلك لم تأمره
بالاعراض لان في اعراضه فساد خلق كثير وفي اقباله فساد وحده ونجاة خلق
والجمع في ميزان الشرع مرجح على الواحد فلا تمنعه ولكن نقول له انشر العلم
وأصح النية ولا نبالي ان هلك هو وصاح بسببه خلق أما اذا لم يكن اشتغاله بالعلم
النافع المنذر الخوف فتمنعه منه ونعيره على ذلك فانه يزداد بذلك في نفسه فسادا وكل من
يجهل بين يديه يسرى اليه فساد العالم ذو الحزم ينظر لنفسه فيعلم انه اذا هلك لا ينجيه
صلاح غيره فاذا أحس من نفسه الضعف عن القيام بحق النشر والافادة أعرض اذ
وجب عليه الاعراض فان جاهد نفسه وراضا وصادف من نفسه تصحيح النية
والقيام به بشرط الافادة عاد وأقبل ووجب عليه العود والاقبال (ولقد أعرضنا) مدة
لتحقق العجز واليأس عن القيام بشرط النشر ثم رجعنا اليه حيث رجونا قوة القيام
بالشروط ظاهرا وباطنا (ولقد كان) الصارف هو اليأس في الوقت وتحقق العجز
والداعي الآن ليس هو يقين القدرة والثقة بمواعيد النفس والأمن من خداعها
وغرورها فان النفس خداعة مابسة مكارة تعد بالخير ثم اذا طلب منها الوفاء بالوعد
ربما تكصت ورجعت الى سجيئتها ولكن الرجاء الغالب هو الداعي اليه فان خاب هذا
الرجاء بعد الامتحان فيجب العود الى الاعراض فلا ينبغي أن ينقض العجب من
الاعراض في مدة والاقبال في مدة والاعراض بعد الاقبال ان اتفق بل يجب قلب
الاحوال عند قلب الثبات والقلوب * وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن
يقابله كيف يشاء (مسئلة) فان قلت فما علامة صحة النية وفسادها في التعليم وبم
يعرف الملم من نفسه ذلك فضلا عن غيره (فاقول) علاماتها كثيرة وجعلتها أن
يمكن من ملازمة التقوى في جميع مصادره وموارده وذلك لا يخفى ولكن نذكر
علامتين خاصتين (احدهما) أن يكون بحيث لو أتعب نفسه مدة في حق تلميذه
حتى خرج في العلوم وبلغه الدرجة العليا فقصر في حقه في القيام بخدمة وانحاز الى
بعض أقرانه فلا يزيد انكاره وتعبه من تقصيره بسبب ما سبق من تعليمه اياه فلو
وجد في نفسه مزيد انكار فدل على انه كان يمين عليه بتعليمه وعرف لذلك حقا
عنده وطلب له من جزاء وشكر أو مكافأة فهذا يدل على ان تعليمه لم يكن خالصا
لوجه الله تعالى بل ينبغي أن يقبل المنفعة من تلميذه اذ هدف قلبه ليزرع فيه علمه
ويؤدي به حق الله تعالى في خلافة ووراثته نية لينال ثمرته في الآخرة كمن أعاد له

أرضا ليزرع فيها (الثانية) انه اذا ظهر في أقرانه من هو أفضل وأقوى منه وكان
أقدر على الارشاد والدعوى الى الصلاح منه وانحاز أصحابه اليه للاستفادة منه فينبغي
أن يفرح به ان كان قصده ارشاد عباد الله تعالى فقد ظهر من كفاه مؤنة التعب فما باله
يحزن به ويتجزع نفسه منه ويكون كمن وجد مسلما وقع في بئر وعلى رأسه حجر ثقيل
فاشتغل بتجنية الحجر الثقيل لانتقاذ المسلم حسنة لله تعالى فحضر من هو أقوى على رفع
الحجر منه ورفع الحجر وكفاه مؤنة التعب فانه يفرح به ويشكره عليه فما باله لا يشكر
من كان من أقرانه أفضل وأتقى وعلى ارشاد المتفقه أقوى وعند هذا النفس خديعة
وينبغي أن يتفطن لها اذ تقول ليس حزنك على فوات الجاه واعراض الاسماع بل
على ما يفوتك من ثواب التعليم فانه مهما كثر التعليم كثر الثواب وهذا صحيح ولكن ينبغي
أن يكون بحيث لو عرف أن ثوابه في المحمول وفي التسليم الى الأفضل أكثر من ثوابه
في القيام بنفسه بالتعليم فينبغي أن تسمح نفسه بذلك بل ترغب فيه بل لا تسمح نفسه
بالقيام به كما كان في حق عمر رضى الله عنه فانه علم ان في القيام بالخلافة من الثواب
ما ليس وراء ثواب ثم لما علم ان أبا بكر الصديق رضى الله عنهما أصح للأمر منه قال
لان أقدم قنضرت عني أحب الى من أن تأمر على قوم فيهم أبو بكر فهذا هو الصدق
ولا يقبل في القيامة الا الصدق وليسلل الصادقين عن صدقهم * فالتاس كلهم هلكتي الا
العالون والعالون كلهم هلكتي الا العالون والعالون كلهم هلكتي الا الخالصون والمخلصون
على خطر عظيم * وكما ازداد علما بهذا الخطر ازداد الخوف والحزن والوجل والدم
النافع ما يعرفك هذا الخطر فلا تشتغل الا به (مسئلة) فان قلت تعلم الملم لغير الله
حرام أى علم كان أم مخصوص ببعض العلوم (فاقول) هو مخصوص بالعلوم الدينية
التي هي من جملة العبادات فاما ما ليس من العلوم الدينية كالحساب فلا يحرم
أن يقصد بتعليمه الجاه وكسب المال واما ماهو من العلوم الدينية كال تفسير والاخبار
وعلم الفقه والاصول والكلام فلا يجوز تعلمها لغير الله والنحو واللغة لا يتعلق بلم الدين
ولكنه آلتة وليس بمقصود فينبغي أن يلحق بالحساب والطب في أنه يجوز تعلمه
لكسب المال والجاه وبالجملة (قوله) عليه الصلاة والسلام من تلم الملم لأربع دخل النار
(وقوله) لا تتعلموا العلم لتباهوا الحديث ورد في العلم مطلقا ولكننا نخصه بالعلوم الدينية
التي هي من جملة العبادات بدليل ما روى أبو هريرة رضى الله عنه مفصلا انه عليه الصلاة
والسلام (قال) من تلم عالما بما يتقى به وجه الله تعالى لا يتعلمه الا ليصيب به غرضا
من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (مسئلة) فان قلت أليس يخذ المتعلم جناية

في المدارس وبأخذ المعلم رزق المدرس ومرسومه المرسوم به (فاقول) من أخذ الجراية ليتعلم فهو له مباح ومن تعلم ليأخذ الجراية فهو حرام فينبغي أن ينظر إلى المقصود قرب متعلم لو قطعت الجراية عنه ترك التعلم وإن كان مكفيا من وجه آخر ولو خلت المدرسة عن المدرس سنة فلا يبالي بل يعتكف في المدرسة ويطلب بالجراية رأس كل شهر ويقتنم تعطيل المدرس ولو قطعت الجراية عنه شهرا مع دوام التدريس والافادة لاضطرب وبني على المدرس وأطال فيه لسانه ورب متفقه لا يملك يوما في المدرسة المعطلة وإن كانت الجراية دارة والله تعالى مطلع على النيات وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعبشة ليتجرد لنشر العلم فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة ويأخذ الرزق بلفة ميسرة للمقصود وربما اشتغل إليه بالنشر لأجل المال وغرضه ومقصود المال وإنما النشر وسيلة له (مسئلة) فإن قلت أليس يجوز عند الشافعي رضي الله عنه أخذ الأجرة على تعليم القرآن والتمسك بتعليم القرآن (لما روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال زوجتكما بما معك من القرآن * وهذا تعام لغير الله تعالى (فاقول) هذا جائز وزيد على هذا فنقول يجوز أخذ الأجرة على الأذان وإقامة صلاة التراويح ويجوز للمعيد أخذ الأجرة على مسائل معينة يكررها وللمدرس على مسائل بعينها يتعب نفسه فيها ولا ينبغي أن يظن أن إمام صلاة التراويح يأخذ الأجرة على الصلاة وإن الصلاة لغير الله جائزة بهذا الدليل فذلك حرام بالاتفاق ولكن اتعابه نفسه في حضور موضع معين وقيامه به في وقت معين ليس بواجب عليه وليس من نفس العبادة وإنما الأجرة في مقابلة ذلك التعب وكان المصل في الدار المفصولة مطيع من حيث أنه مصلل عاص من حيث أنه كائن في الدار المفصولة فكذلك هو مخلص من حيث أنه يصلي التراويح لله تعالى معان من حيث أنه يحضر المكان المعين ويقيم العبادة في الوقت الذي يعينه المستأجر وكذلك اتعابه نفسه في تلقين سورة القرآن شخصا معينا ليس بواجب عليه فله أن يتقرب إلى الله تعالى بهذا التعب وله أن يأخذ العوض عليه وإن كان ذلك من فروض الكفايات كحفر القبور ودفن الموتى وغسلهم والدليل عليه أن من تعين عليه تعلم الفاتحة فليس له أن يتعلم إلا الله تعالى لأنه فرض دينه ومعلم الفاتحة له أن يأخذ الأجرة وإن كان تعلمها واجبا على المتعلم ولكن ليس يلزمه اتعاب نفسه مجانا بل المضطر في الخصة يجب على مالك الطعام أن يبذل له الطعام ويتعين إذا لم يحضره غيره ولكن يجوز له أن يبيعه وأن يملكه بعوض لأن الواجب عليه الاتقاد بالاتقاد

مجانا فكذلك التعليم

الباب الثالث في العلامة الفاصلة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة

اعلم أن أصل فساد علماء السوء في نيتهم ثم في معاملتهم وإنما يعلم بواطنهم بعلامات ظاهرة من معاملاتهم فلنسم علماء الدين وهم الأبرار علماء الآخرة وعلماء السوء وهم الأشرار علماء الدنيا (فتقول) لعلماء الآخرة علامات (أولها) أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة وشرها ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم لهما متضادان وأنهما كالضرتين مهما أريدت أحدهما أسخضت الأخرى وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت أحدهما أرفقت الأخرى فإن من لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وقرب انصرامها فهو فاسد العقل فإن المشاهدة والتجربة ترشد إليه فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ومن لا يعلم عظم سعادة الآخرة ودوامها فهو مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وإن الجمع بينهما طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرعية الأنبياء كلهم بل هو كافر بآيات القرآن ونصوصه فكيف يعد من زمرة العلماء من هذا جهله بشرعية الأنبياء ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذا درجته ولهذا قال الحسن رضي الله عنه عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وقال عمر رضي الله عنه إذا رأيتم العالم محبا لدنيا فاهموا على دينكم فإن كل محب يخوض فيها أحب (وروى) أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل للذين يتفقهون لغير دين الله ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقنوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياي يخادعون وبني يستهزئون لا تخن لهم فتنة تذر الحليم حيران (وروى) الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال علماء هذه الأمة رجالان رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا فذلك يصلي عليه طير السماء وحيثان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله تعالى يوم القيامة سيذا شريفا حتى يرافق المرسلين ورجل

آتاه الله علما في الدنيا فضن به على عباد الله تعالى وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا يأتي يوم القيامة ملجعا بلجام من نار ينادى مناد على رؤس الأشهاد هذا فلان بن فلان آتاه الله علما فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا قليلا يعذب حتى يفرغ من حساب الخلق (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم إن العبد ليشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة (وروى) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الرغبة إلى الزهد ومن الكبر إلى التواضع ومن العداوة إلى النصيحة * وقال عيسى صلوات الله عليه يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم أن تقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لا تكون كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك أتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الفل في صدوركم ياعيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول ان قلوبكم تبيى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت أسيادتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول أفسدتم آخرتكم بإصلاح الدنيا فصالح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأي الناس أخس منكم لو كنتم تعلمون وياكم إلى متى تصفون الطريق للمدحجين وتقيمون في محل المنحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم فتأكلوها مهلا مهلا وياكم ماذا يفتى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يفتى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة ياعيد الدنيا لا كعيد اتقاء ولا كإحراز كرام يوشك الدنيا أن تقلعكم من أصولكم وتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخيركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيركم ثم يدفعكم العلم من خلفكم حتى يسلمكم إلى الملك الديان عرانا حفاة فرادا فيوقفكم على سواتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم (ثانيها) أن يكون بما يأمر به أول عامل وعما ينهى عنه أول منته * قال الله تعالى (أناأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقال (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقال في قصة شعيب عليه الصلاة والسلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه) وقال تعالى لعيسى يا ابن مريم عطف نفسك فإن اتظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال الفضيل بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم قبل عبدة الاوثان

وقال حاتم الأصم ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل به ففازوا بسببه وهلك وقال ابن السكك كم من مذكر بالله ناس لله وكم من داع إلى الله فار من الله وكم من مخوف بالله جرى على الله وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله وكم من تال لكتاب الله منسلف من آيات الله (وقال) مكحول حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعلموا ما شئتم أن تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعملوا * وقال ابن مسعود رضي الله عنه سأتى على إنسان زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ومتعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباح من ذوات الملح ينزل عليها قطر السوء فلا يوجد لها عذوبة وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلمهم الله تعالى بنيبيع الحكمة ويطفى مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفتجور بين في عمله فأخضب اللسن يومئذ وما أجذب القلوب فوالله الذي لا اله الا هو ماذا الا لأن المعلمين علموا للبر الله والمتعلمين تعلموا للغير الله (وقد) قال صلى الله عليه وسلم إن الشيطان ربما سيقكم بالعلم فقبل وكيف ذلك قال يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلمه كله فلا يزال في العلم قائلا وللعلم مسوفا حتى يموت وما عمل (ثالثها) أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعة الصارف عن الدنيا ويتوق العلوم التي يكثر فيها الجدل والقليل والقال فتال من يعرض عن علم الأعمال ويشغل بالجدال والتفاريح النادرة في المسائل (مثال) رجل مريض به علل كثيرة صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فلم يسئله عن علاج مرضه واشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وذلك محض السفه (جاء) رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني من غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام وماذا صنعت في رأس العلم قال ومارأى العلم فقال هل عرفت الرب قال نعم قال وما صنعت في حقه قال ماشاء الله قال هل عرفت الموت قال نعم قال فما أعددت له قال ماشاء الله قال اذهب فاحكم ما هنا لك ثم تعال لعلمك من غرائب العلم * فهذا يدل على أن الواجب احكام رأس العلم وهو الإيمان بالله واليوم الآخر فانه قال هل عرفت الله وهل عرفت الموت بل ينبغي أن يكون التعلم من جنس ما روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي قال له شقيق منذكم محبتي قال منذ ثلاث وثلاثين سنة فقال فما تعلمت مني في هذه المدة فقال ثمان مسائل * قال شقيق (أنا لله وأنا إليه راجعون) ذهب عمرى معك

ولم تعلم الاثمان مسائل قال يا أستاذ اني لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب فقال هات ما هي قال حاتم (نظرت) الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا اذا دخل القبر فارقه فجمعت الحسنات محبوبي حتى اذا دخلت القبر دخل محبوبي معي فقال أحسنت يا حاتم فما (الثانية) قال نظرت في قوله عز وجل (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) الآية فعلمت ان قوله حق فاجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقر قلبي في طاعة الله تعالى (الثالثة) نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة عنده ومقدار رفاهه وحفظه ثم نظرت الى قوله تعالى (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) فكلمنا وقع معي شيء له مقدار وقيمة وجهته اليه ليبقي لي عنده (الرابعة) اني نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يرجع الى مال أو حسب أو نسب أو شرف فنظرت فاذا هي لا شيء ثم نظرت الى قوله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فعملت في التقوى حتى أكون عند الله تعالى كريما (الخامسة) نظرت الى هذا الخلق وهم يظنون بعضهم بعضا وبإيمان بعضهم بعضا وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت الى قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من الله فتركت عداوة الخلق (السادسة) نظرت الى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقاوت بعضهم بعضا والشيطان يديهم بفروره ويبيدهم بوساوسه فعاديتهم ورجعت الى قوله تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) فعاديتهم وحده واجتهدت في أخذ حذري منه لان الله تعالى شهد عليه انه عدو لي فتركت عداوة الخلق (السابعة) نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة ويدل نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت الى قوله تعالى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) فعلمت اني واحد من هذه الدواب فاشتغلت بحق الله تعالى وترك مالي عنده (الثامنة) نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم متوكلين هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه وكل مخلوق متوكل على مخلوق فرجعت الى قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت عليه فهو حسبي قال شقيق يا حاتم وفقك الله فاني نظرت في علم التوراة والانجيل والزبور والقرآن العظيم وهي تدور على هذه المسائل الثمانية فهذا الفن من العلم بهم بادراكه علماء الآخرة وأما علماء الدنيا فيشتغلون بلوم تتعلق بالخلق لئلا يسرهم اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه اللوم التي بها بعث الله الانبياء وقال الضحَّاك أدركتهم وما تعلم بعضهم من بعض

الا الورع وهم اليوم يتعلمون الكلام (رابعها) أن يكون غير مائل الى الزفة في المطعم والتعم في الملبس والتجمل في الاثاث والسكن وأن يميل فيه الى القناعة والقلة ما أمكنه أخذًا بالحزم واقتداء بالسلف وكلما زاد في المباحات الى طرف القلة ميله ازداد من الله تعالى قربه وارتفع في علماء الآخرة درجة (حكى) عن أبي عبد الله ابراهيم الخواص وهو من أصحاب حاتم قال دخلنا مع حاتم الري يريد الحج فاخبر حاتم بأن قاضي الري محمد بن مقاتل رجل عالم وهو مريض فقال زيارة العالم وعبادة المريض فيه فضل كثير فخرج لبيادته فرأى بابا مشرفا عليا ودارا قوراء حسنة وتجملا خارجا عن الحد فدخل عليه فاذا هو نائم على فرش وطيفة فبقي حاتم متفكرا وقال هذه دار عالم فقعد القاضي المريض لآحل حاتم وسأله الجلوس فلم يجلس وقال لعل لك حاجة قال نعم قال هات قال مشكلة اسئلك عنها فاستوى قائما حتى اسئلك فاستوى قائما بين يدي الجميع فقال حاتم علمك هذا من اين اخذته قال الثقات حدثوني به قال عن من قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهم عن من قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو عن من قال عن جبريل عن الله تعالى قال وهل سمعت فيها حديثك هولاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ان من كان داره أوسع ونجمه أكثر وماله أوسع فنزلته عند الله أكبر قال لا قال فكيف سمعت قال سمعت من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرفته كانت منزلته عند الله تعالى أرفع قال قلت بمن اقدت أبا لثي وأصحابه أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالخص والاجر يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل متكابا على الدنيا راغبا فيها فيقول عالم الزمان هكذا أفأكون خيرا منه وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا (فاخبر) حاتم أن الطنافسي بقزوين أعظم توسعاً منه فسار اليه متعمدا ودخل عليه ورأى تجمله الواسع فقال له رحمك الله أنا رجل أعجمي أريد ان تعلمني وضوئي ومفتاح صلاح قال نعم حبا وكرامة فدعا بماء وتوضى بين يديه ثلاثا ثلاثا وقال هكذا توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حاتم فانا أتوضأ أيضا بين يديك فيكون أوكد لما أريد فقال نعم فتوضأ حاتم ففعل الذراعين أربعا فقال الطنافسي أسرفت قال حاتم فيما ذا قال في العسة الرابعة قال حاتم سبحان الله أنا أسرفت في كفة من ماء وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف فتنبه الطنافسي لخرضه فنجل ودخل البيت ولم يخرج الى الناس أربعين يوما ثم سار الى بغداد فاجتمع اليه العلماء وقالوا له أنت رجل أعجمي لكن لا يكلمك أحد الا قطعته قال معي

(ثلاث) خصال بين أظهر على خصمي أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن تجهل عليه فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال سبحانه الله ما عقله قوموا بنا إليه فلما دخلوا عليه قال يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا قال يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون ملكك (أربع خصال) تغفر للقوم جهاهم وتنتج جهلك وتبذل لهم شيئا وتكون من شيئهم آيساً فإذا كنت هكذا سلمت (ثم سار) إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فرأى فيها قصورا مرتفعة وأبنية مشيدة قال يا قوم أية مدينة هذه قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلى فيه قالوا ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطي بالارض قال فأين قصور أصحابه قالوا ما كان لهم البيوت لاطئة بالارض قال حاتم يا قوم فهذه مدينة فرعون فاخذوه وذهبوا به إلى الوالى قالوا هذا العجمي يقول لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم انها مدينة فرعون قال الوالى ولم قلت ذلك قال لا تعجل على أنا رجل أعجمي سألت هؤلاء عن قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصور أصحابه وقصص عليه القصة ثم قال وقد قال الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) فاتم بمن تأسيتم برسول الله وبأصحابه أم بفرعون أول من بنى بالجس والآخر فخلوا سبيله وتركوه فقتل هذا العالم يصاح بكلمة واحدة أهل بلدة وعالم السوء يفسد بصورته أهل بلدة فضلاء عن سيرته ولكن من كان تعلمه في ثلاث وثلاثين سنة ثمانى مسائل من الجنس الذى ذكرناه كان تعاليمه كذلك (أما إذا كان) أول مقصدك من التعلم اتوضى بنيد التمر وهل يجوز دباغ جلد الكتاب وزكاة الحمار وهل تفيد طهارة الجلد وما يجرى مجراه لم يحصل من علمك لاصلاح نفسك ولا صلاح غيرك ودل اشتغالك في الابتداء به على خلل عقلك فمتى رأيت رجلا يملك حمرا فيذبحه ثم يلبس جلده قبل الدباغ حتى تصرف همتك إليه وتبين ان هذه حيفة ميتة لا يجوز لبسها ويجب دباغها وقلبك ميت وهو بين جنبيك وقد انتثر نذره في الافاق فلم لاتهم بدباغه وتظهيره عن نجاسته ولا تتعلم طريق دباغه ومتى رأيت رجلا زنى بامرأة وجاءت بولد ثم تزوجها حتى تصرف همتك إلى ان هذا النكاح جائز ام فاسد (والمقصود) ان علماء الآخرة يفتنون من الدنيا بالقليل ويتراكون التجميل وان كان مباحا لعلمهم بان ذلك المباح يدعوهم إلى الحرام كما قال عمر رضى الله عنه كئنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة الوقوع في الحرام والمشاهدة تدل على هذا فان التعم لا يمكن الا بكثرة الاسباب من والضيايع والمستغلات ولا يمكن حفظ هذه الاسباب الا بالجاه ولا يتم الجاه

الاجماعونة السلاطين ولا يتم ذلك الا بمخالطتهم ومتابعتهم وملازمة خدمتهم والسكوت على ظلمهم ومن خالطهم داراهم ومن داراهم داهنهم ورآهم ووقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا وعن هذا الملاك عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث (قال) من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حيفة وهو لا يشعر فان حفظ هذه المباحات بجره إلى المعاصي المهلكة بالضرورة (خامسها) ان يكون منقبضا عن مخالطة السلاطين وزيارتهم لا يدخل عليهم الا لضرورة شفاعاة أو دفع ظلامة أو نصيحة وارشاد إلى مصالحة ويقطع طمعه عن ملهم وجاههم حتى تنفذ نصيحته وتقبل شفاعته وقد احترز الاولون من الدخول على السلاطين (لما روى) عاصم ابن ضمرة عن علي كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان في جهنم واديا اذا فتح استجارت منه النار سبعين مرة اعد للقراء المرائين واشد القراء عذابا الذين يزورون الامراء (وقد) قال صلى الله عليه وسلم للعالماء امناء الرسل على عباد الله ما لم يخالفوا السلاطين فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاخذروهم واعتزلوهم رواء انس (وقال) صلى الله عليه وسلم شرار العلماء الذين يأتون الامراء وخيار الامراء الذين يأتون العلماء (وقال) صلى الله عليه وسلم من بداحفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن وقال حذيفة رضى الله عنه اياكم ومواقف الفتن قيل وما هي قال ابواب الامراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه وقيل للانتمش لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذ عنك قال لا تعجلوا ثلث يموتون قبل الادراك وثلث يلزمون السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقي لا يفلح منهم الا قليل وقال سعيد بن المسيب اذا رأيت العالم يغنى الامراء فاحترزوا منه فانه لص وقال الاوزاعي ما من شئ أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا وقال بعضهم الذباب على العذرة أحسن من الفقهاء على باب السلطان وقال أبو ذر لسامة ياسلمة لا تنش ابواب السلاطين فانك لا تنصيب من دنياهم شئ الا أصابوا من دينك أفضل منه وكان يقال العلماء اذا عملوا عملوا واذا عملوا شغلوا واذا شغلوا افتقدوا واذا افتقدوا طلبوا فاذا طلبوا هربوا وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى رضى الله عنه (أما بعد) فأشتر على يقوم أثنين بهم على أمر الله تعالى فكتب إليه أما أهل الدين فلن يريدوك وأما أهل الدنيا فلن تريدكم ولكن عليك بالاشراف فانهم يصونون شرفهم ان يدنسوه بالحياة فهذا في مثل عمر بن عبد العزيز وهو ناني عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذكر له ان أهل الدين لن يريدوك وقال ابن مسعود رضى الله عنه ان الرجل

ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج من عنده لادين له قيل كيف ذلك قال يرضيه بسخط الله تعالى (واستعمل) عمر بن عبد العزيز رجلا عاملا فقيل له انه كان عاملا للحجاج فعزله فقال له الرجل ما عملت له الا على شيء يسير فقال حسبك بصحبته يوما واحدا شؤما وشرا وكان سعيد بن المسيب يجري في الزيت ويقول ان في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين وقال وهيب هؤلاء الذين يدخلون على الملوك هم اضر على الامة من المقامرین (فان قلت) فما سبب هذا التشديد في الدخول عليهم لاسيما من لا يأخذ منهم شيئا (فاقول) سببه ان الداخل عليهم يمرض لسخط الله تعالى وعصيانه أما في فعله أو سكوته أو قوله أو اعتقاده وقل من ينفك عن أحد هذه الامور (أما) الفعل فالداخل عليهم في غالب الامر يكون في دار منصوبة أو معمورة بالمال الحرام أو مفروشة بالفرش المصنوعة فتخطى الدار والاستظلال بتلك العمارات ووطى الفرش كل ذلك معصية فان فرض ان السلطان في صحراء موات أو في مسجد لم يعص بمجرد الدخول ولا بقوله السلام عليك ولكن ان سجد أو ركع أو انحنى أو مثل قائما فانه كان مكرما للظالم بسبب ولايته التي هي آله ظلمه والتواضع للظالم معصية بل (قال) صلى الله عليه وسلم من تواضع لغنى لقائه ذهب ثلثا دينه * هذا في غنى غير ظالم فما قولك في الظالم فلا يجوز اكرام الظالم من غير ضرورة (نعم) اذا زارك تقربا الى الله تعالى وإلى العلم استوجب المكافأة على الاكرام بالاكرام لان قصد التقرب الى أهل الدين خير يجب الاكرام عابه حتى تزيد رغبته ولعله المراد بقوله صلى الله عليه وسلم اذا جاءكم كريم قوم فاكرموا (وقد) سلم بعض السلف في هذا سبيل الحشونة ولم يكرمواهم وأنزاروهم استحقارا لهم وذلك أسلم وأولى اذ لم يؤدي الى كسر حشمة السلفته ولم يكن سببا للتفريق عن اكرام العلم ويتناف ذلك باختلاف احوالهم واعتقاداتهم ودياناتهم (وأما) المعصية بالسكوت فلانه يرى في مجلسهم من فرش الحرير واواني الفضة ومن الديباج الملبوس لهم ولعلمائهم ماهو حرام وكل من رأى سيئة وسكت عنها فهو شريك فيها بل انتهى عن المنكر واجب قطعا بل يسمع من كلامهم ماهو غش وكذب وايداء والسكوت على جميع ذلك حرام (فان قلت) انما يجب ذلك اذا لم يخف على نفسه اما اذا خاف فهو معذور (قلت نعم) ولكنه مستغن عن الحضور والمشاركة فهو غير معذور في حضوره بموضع تجرى فيه معصية الله تعالى فمن حضر مجلس شربهم وشاهد فسقهم وزعم انه معذور في سكوته لا يخوف لم يعذر وقيل يجب عليه ان لا يحضر مجلسا تجرى فيه معصية الله (وأما)

القول فهو ان تدعوا له او ينهى عليه او يصدق فيما يقوله من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه أو يظهر له الحب والمودة والاشتياق الى لقائه والحرص على طول بقاءه فانه في الغالب لا يقتصر على السلام وكلامه لا يعدو هذه الاقسام (أما) دعاؤه فلا يحل له الا أن يقول اصلحك الله أو وفقك الله للخيرات او طول الله عمرك في طاعته وما يجري هذا المجرى (فأما) الدعاء بطول العمر واتساع النعمة والحطاب بالمولى فلا رخصة فيه (قال) صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد احب ان يعصى الله تعالى في ارضه * فان جاوز الدعاء الى التناء فيذكر ما ليس فيه فيكون كاذبا متافكا ومكرما للظالم وهذه (ثلاث) معاص وقد (قال) صلى الله عليه وسلم ان الله يفضب اذا مدح الظالم (وفي) خبر آخر من اكرم فاسقا فقد أعان على هدم الاسلام * فان جاوز الدعاء والتناء الى التصديق فيما يقوله والتذكية فيما يفعله كان عاصيا يترك النهي عن المنكر وبالاعانة على المنكر فان التذكية والتصديق تحريك للرغبة وتجربة عليه كما ان التذكيب والذم والتقييح زجر عنه وتضعيف لدواعيه والاعانة على المعصية معصية ولو بشرط كلمة فان جاوز ذلك الى اظهار الشوق الى لقائه والفرح بدولته واقباله فان كان كاذبا عصى بمعصية التفاف والكذب وان كان صادقا عصى بحبه بقاء ظالم وحقه ان يفضيه في الله تعالى ويعقته فالبنص في الله تعالى واجب ومحبة المعصية والراضي بها عاص ومن احب ظلما لظلمه فهو عاص وان احبه لالظلمه فهو عاص من حيث انه لم ينضه والواجب عليه ان يفضيه وان اجتمع في شخص خير وشر وجب ان يحبه لما فيه من الخير وينفضه لما فيه من الشر ويجمع بين الحب والبغض وسنين كيفية الجمع في كتاب الآخرة واحكام المتحايين في الله تعالى من كتب احياء علوم الدين (وأما) اعتقاده فاقول ان سلم من جميع ما ذكرنا فلا يسلم من فساد قلبه فانه اولا ينظر الى توسعه في النعمة فيزدري نعمة الله على نفسه فيكون مقتحما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث (قال) لا تدخلوا على اهل الدنيا فانه مسخطة للرزق * قال الله تعالى (لا تمدن عيذك الى ما متعابه ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) ولا شك في ان من يشاهد ذلك تتحرك رغبته وحرصه على الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة (وقد حكى) ان رجلا كان يمشي مع سفيان الثوري فاتته الى باب مشيد مرفوع فنظر اليه فأنكر سفيان وقال هذا اعانة على الاسراف لان الناس لو لم ينظروا اليه لما فعلوه في مثل هذا كان تدقيتهم في النظر

لا في الفروع النادرة في الفقه فقد بان ان الداخل على السلطان متعرض لهذه المعاصي فلا يجوز له ذلك الا لضرورات وهي ثلاثة * أحدها ان يكون من السلطان أمر الزام لأمر اكرام وعلمانه لو امتنع أودى أو أفسد عليه أمر الرعية واضطرب أمر السياسة * الثانية دفع الظلم عن مسلم معين أما بطريق الحسبة في حق غيره أو بالتظلم في حق نفسه * الثالثة النصيحة على العموم اذا علم مسيس الحاجة اليه وكان مقبول القول عندهم وفي هذا مكر للشیطان فانه ربما يحسن عنده مداخلة السلاطين ويقول انما غرضك مصلحة الخلق وشفاعة الضعفاء ولا يكون ذلك باعثة في السر بل اكتساب القبول والجاه وعلامته انه لو ظهر من هو أفند قولاً منه في الشفاعة والنصيحة واستغنى عن الدخول لكان يحزن ويتم ولو كان للضرورة لكان ذلك عنده غنمة اذ كفي مؤنة التعب والتعرض للخطر واعلم ان أقل ما في مشاهدتهم من البعد ولو في الطريق حركة الرغبة في الدنيا وهو أساس كل فساد كما قال الله تعالى في قصة قارن (خرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارن) حتى قال أهل العلم (وإياكم ثواب الله خير لمن آمن) فالدلم الذي يترف هذا ينبغي ان يطلب فهو من جنس ما قاله حاتم الأصم قال انما بيني وبين الملوک يوم واحد أما أس فلا يجيدون لذته وأما غدا فانا وإياهم منه على وجل وانما هو اليوم فما عسى أن يكون في هذا اليوم قال أبو الدرداء رضي الله عنه أهل الاموال يأكلون وناكل ويلبسون ونايس ويشربون ونشرب لهم فضول أموال ينظرون اليها ونحن ننظر معهم اليها عليهم حسابها ونحن منها براء فمثل هؤلاء العلماء يعلمون ثواب الله خير وبمثل هذا العلم تركوا لئلا الدين أموال السلاطين فلم يأخذوه مع العرض اليهم وحكى عن مقاتل بن صالح قال كنت عند حماد بن سلمة واذا ليس في بيته الا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه كتيبه ومطهرة يتوضأ فيها فينما نحن عنده اذ دق داق الباب ففتح فاذا هو محمد بن سليمان أحد الخلفاء فدخول وجلس ثم قال مالي اذا رأيك امتلأت منك رعباً فقال حماد لانه عليه الصلاة والسلام (قال) ان العالم اذا أراد بعله وجه الله تعالى هابه كل شيء وان أراد أن يكثر به الكنوز هاب من كل شيء * ثم عرض عليه أربعين ألف درهم في صرة فقال تأخذها وتستعين بها فقال أرددها على من ظلمته بها قال والله ما أعطيتك الا ما ورثته فقال لا حاجة لي فيها فقال فتأخذها فقسّمها قال لى ان عدلت في قسمتها ان يقول بعض من لم يرزق منه شيئاً انه لم يعدل في قسمتها فيأثم فازوها عنى فهكذا كانت معاملة علماء الدين

مع السلاطين اذا دخلوا لزيارتهم واذا استحضروهم حضروا بحكم الامر وبالغوا في النصيح من غير مداينة (كما حكى) ان هشام بن عبد الملك قدم حاجاً الى مكة فقال اثنتون رجلاً من الصحابة فقبل قفاؤا فقال من التابعين فأتى بطاووس الجاني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بأمره المؤمنين ولكن قال السلام عليك يا هشام ولم يكنه وجلس بين يديه وقال كيف أنت يا هشام فغضب هشام غضباً شديداً وهم بقتله فقبل له أنت في حرم الله وحرم رسول الله فلا يمكنك ذلك فقال ياطاوس مال الذي حملك على ما صنعت فقال وما الذي صنعت فازداد غيظاً وقال خلعت نعليك بحاشية بساطي وهذا منك في رسوم الخلفاء ولم تقبل يدي ولم تسلم على بأمره المؤمنين ولم تكني وجلست بازائي بغير اذنى وقلت كيف أنت يا هشام فقال اما ما خلعت نعلي بحاشية بساطك فأتى أخلفهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاقبني ولا يغضب على وأما قولك لم تقبل يدي فأتى سمعت أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول) لا يحمل لرجل ان يقبل يدي أحد الا امرأته من شهوة أو ولد برحمة وأما قولك لم تسلم بأمره المؤمنين فليس كل الناس راضين بأمرتك فكرهت ان اكذب وأما قولك لم تكني فان الله تعالى سمي اوليائه وقال يا آدم يا داود يا عيسى يا يحيى وكفى أجداءه فقال تب تب يا أبي لب واما قولك جلست بازائي فأتى سمعت أمير المؤمنين على بن أبي طالب يقول اذا أردت ان تنظر الى رجل من أهل ائثار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام فسكن غضبه واستحسن صدقه وورعه وقال ياطاوس عظمي فقال سمعت أمير المؤمنين على بن أبي طالب يقول (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في جهنم حيات كالافئال وعقارب كالبعال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام وهرب (وحكى) ان سليمان بن عبد الملك من الخلفاء قدم المدينة وهو يريد مكة فارسل الى ابي حازم وهو من اكابر علماء الدين ودعاه فلما دخل عليه قال سليمان يا أبا حازم مالنا نكره الموت قال لانكم خربتكم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم ان تنقلوا من العمران الى الحراب قال يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى قال اما المحسن فكل الغائب يقدم على اهله واما المذنب فكل لا يبق يقدم به على مولاة فبكي سليمان ثم قال ليت شرى مالي عند الله قال اعرض نفسك على كتاب الله عز وجل حيث قال (ان الارار لى نعيم وان الفجار لى نعيم) قال سليمان فابن رحمة الله قال قريب من الحسين قال فما النجاة مما نحن فيه قال ان تأخذ من حله وتضعه في حقه قال ومن يطبق هذا يا أبا حازم قال من طلب

الجنة وهرب من النار (وقال) عمر بن عبد العزيز لابي حازم عظمي قال اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما يحب ان يكون فيك تلك الساعة ففذه الآن وما تكره ان يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن فدل تلك الساعة قريبة هكذا كان كلام العلماء مع السلاطين فتعلم اولاً انهم ثم طريقتهم في الكلام ثم ادخل ولا بأس (سادسها) ان لا يكون مسارعاً الى الفتوى بل يكون محترزاً من تقلد خطر الاجتهاد وتكون المسائل عنده ثلاثة أقسام (قسم) يعلمه بنص كتاب الله تعالى أو سنة أو قياس جلي فيفتي به (وقسم) يشك فيه فيقول لا أدري ولا يستكشف من قول لا أدري بل يعترف بصدق قوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلاً (وقسم) علمه بالاجتهاد والظن فيدفعه عن نفسه ويحيله على غيره اذا لم يكن متميماً هكذا كانت سيرة الصحابة وعلماء السلف رضى الله عنهم (أما) التسرع الى الفتوى والتشوق الى ان يكون هو المسؤول فدلالة على طلب الجاه (نفى) الخبر ان العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري (وقال) الشعبي لا أدري نصف العلم ومن سكت لله حيث لا يدري فليس أقل أجراً ممن نطق لان الاعتراف بالجهل أشد على النفس (وكان) ابن عمر رضى الله عنهما اذا سئل عن الفتوى قال اذهب الى الامير الذي تقلد أمور الناس فضعها في عنقه (وقال) ابن مسعود رضى الله عنه ان الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لجنون (وقال) جنة العالم لا أدري فاذا أخطأ أصيب بمقاتله ومروى على وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما رجل يتكلم على الناس فقال هذا يقول اعرفوني وكان رسول صلى الله عليه وسلم يسئل عن أمور فيقول لا أدري الى ان ينزل جبريل عليه السلام فيبين له وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة وكان في الفقهاء من يقول لا أدري أكثر من يقول أدري منهم سفيان ومالك واحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحارث وجماعة وقال عبد الرحمن ابن ابي ليلى ادركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم من احد يسأل عن فتوى الاود ان اخاه كفاه ذلك وكانت المسئلة تعرض على احدهم فيردها الى آخر ويرد الآخر الى آخر حتى تعود الى الاول كذلك كانوا يتدافعون حذراً من خطر الفتوى وكان قد اهدى الى واحد من أصحاب الصفة رأس مشوى وهو في غاية الضر فقال اخي فلان أولى به فيعنه اليه ويثنه ذلك الى آخر ودار على جماعة منهم حتى عاد الى الاول بعد سبعة فانظر الآن كيف صار المطلوب مهروباً عنه والمهروب عنه

مطلوباً وقال بعضهم كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء الامامة والودعة والوصية والفتوى وصار الناس يتحذرون الآن هذه الاربعة (سابها) ان يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وتوقع انكشاف ذلك من المجاهدة فان المجاهدة مبدأ المشاهدة قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلاً) فبالمجاهدة والجلوس مع الله في الخلوة مع تطهير القلب عن شواغل الدنيا تنكشف دقائق علوم الدين وتتفجر بتابع الحكمة من القلب من غير عد ولا حصر (فصفية) القلب والجلوس في الخلوة مع الله تعالى هو مفتاح الالهام ومنع الكشف فكلم من متعلم طال تعلمه ولا يقدر على مجاوزة مسموعه وكم من مقتصر في تعلمه على المهم متوفر على مراقبة القلب وقد فتح الله تعالى عليه من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوى الالباب ولذلك (قال) صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقال الله تعالى (ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) فالخرج من الظلمات والظلم بالرزق من المعارف مبدؤه اتقوى (وفي بعض) الكتب السالفة من قول الله تعالى يا بني اسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الارض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر فيأتى به العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي باداب الروحانيين وتخلقوا الى باخلاق الصديقين أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم وينمركم ولولا ان النور الباطن في القلب مستول وحاكم على العلم الظاهر لما (قال) صلى الله عليه وسلم استفت قلبك وان أفتاك المقتون (وقد قال) الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالتواقل حتى أحبه فاذا أحبته كنت له سمعاً وبصراً فكلم من الفرق بين من يسمع به ويعصر به وبين من يسمع ويبصر ويجهد وينظر بقوته ونفسه وعن هذا المعنى عظم علماء الظاهر أرباب القلوب (وكان) الشافعي رضى الله عنه يجلس بين يدي شبان الراعي ولم يكن من العلماء يعلم الظاهر فقبل للشافعي مثلك يجلس بين يدي هذا العجمي فقال ان هذا وفق لما علمناه (وكان) احمد بن حنبل ويحيى بن معين يتخلفان كثيراً الى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمثابةما فلنقتصر من هذه العلامات على ما ذكرناه فقد ذكرنا بقية في كتاب الاحياء فتطلب منه

(فصل) وبالحرى ان نذكر في هذا المقام نبذة من سيرة أئمة المذاهب ليلم المقتدون بهم ان شرفهم وعلو درجتهم ومكانتهم عند الله لم يكن بمجرد العلم الظاهر والتوسع في تفاريع المسائل الفقهية بل لكونهم من علماء الآخرة جامعين لعلاماتهم متأسين فيها بالصحابة والتابعين

والسلف الصالحين وبنين ان كل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة وفيها في مصالح الخلق ومعاملات الدنيا ومريدا بفقهاء وجه الله تعالى فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء الفرق من جملتها على خصلة واحدة وهي التشمر والمبالغة في تقاريع الفقه لان الحاصل الاربع لا تصلح الا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة ايضا ان اريد بها الآخرة فاصلا حها للدنيا تشمروا لها وادعوا بها مشبهة أولئك الاثمة وزعموا ان من طعن فينا فقد طعن فيهم وطعن في العلماء وفي العلم وههنا فلا تقاس الملائكة بالحدادين بل هم في القيامة أول خصومهم وخصوم أتباعهم الذين اتسبوا اليهم واتخلوا مذهبهم ولم يسلكوا مسلكهم ونحن نورد من أحوالهم في هذه الحاصل ما يستحي المدعون الانحال مذهبهم ان انصفوا أنفسهم (أما) الشافعي رضى الله عنه فيدل على كونه عابدا ما روى انه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للعلم وثلثا للصلاة وثلثا للنوم وقال الربيع بن سليمان كان الشافعي يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة وكان البويطي أحد أتباعه وكان يحتم القرآن كل يوم مرة وقال الحسين النكريسي بت مع الشافعي غير لينة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فاذا أكثر فأنه كان لا يمر على آية رحمة الا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المؤمنين ولا على آية عذاب الا نعوذ منها وسأل اتجاة لنفسه وللمؤمنين فكانما جمع له الرجاء والرهبة معا فانظر كيف يدل اختصاره على خمسين آية على تبخره في أسرار القرآن وتذبره فيها وقال الشافعي ما شبت منذ ست عشرة سنة لان الشبع ينقل البدن ويقسى القلب ويزيل القطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة فانظر الى حكمته في ذكر آفات الشبع ثم في جده في العبادة اذا طرح الشبع لاجلها ورأس التعب لتقليل الطعام فانت تدعى متابعة الشافعي ولا تترك الشبع قط اقتداء بمذهبه وانما تطول النزاع في ان الور ينبغي أن يكون منفصلا لا متصلا وتعلم مقدار التفاوت بين الاتصال والانفصال وانه حين في الدين والتفاوت بين الشبع وبين تقليل الطعام في تهيئة أسباب السعادة والشقاوة لا يدخل تحت الحصر وانت لا تلتفت اليه والشيطان يلقي اليك ان تعصب في الور وافراد الاقامة لله تعالى لا لتعصب وكذلك جميع مسائل الخلاف فانت منخدع بتأييده ومتر به وقال الشافعي ما حلفت بالله عز وجل لاصادقا ولا كاذبا فانظر الى حرمة وتوقيره لله تعالى ودلالة ذلك على علمه بجلال الله تعالى وسئل الشافعي عن مسألة فسكت فقل له ألا يجيب فقال حتى انظر الفضل في السكوت أو في الجواب فانظر الى

ضبطه لسانه مع انه أشد الاعضاء تسلطا على العلماء وبه يعلم انه كان لا يسكت ولا يتكلم الا لله وقال الشافعي كتب حكيم الى حكيم انك قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم وأما زهده فقد قال الشافعي من ادعى انه جمع بين حب الدنيا وحب خلقها في قلبه فقد كذب وقال الحميدى خرج الشافعي الى اليمن مع بعض الولاة وانصرف الى مكة بعشرة آلاف درهم وضرب خباء خارج مكة فكان الناس يأتونه فما برح من موضعه حتى فرقها كلها وخرج مرة من الحمام فاعطى الحماني مالا كثيرا وسقط سوطه مرة من يده فرمعه اليه انسان فاعطاه خمسين دينارا وسخاوة الشافعي أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء فليس الزهد عبارة عن فقد المال بل عن فقد علاقة القلب معه فلا تظن ان ساجان في ملكه لم يكن زاهدا بل كان يأكل خبز الشعير ويطعم الخلق لذائذ الاطعمة وهذا أشد من الزهد مع خلو اليد عن المال بل الزاهد من المال عنده كالماء ولو كان على شط البحر وهو قادر عليه لم يضره ذلك لانه يعدد لحاجات المسلمين ولا يكون لقلبه معه علاقة فلو كان بدل الماء المشروب طعاما لكان المظوم عنده كالشرب وقد أثبتنا على تحقيق ذلك في بحث الزهد من كتاب احياء العلوم (وروى) ان سفيان بن عيينة روى حديثا من الرقائق فغشى على الشافعي فقل له قد مات فقال ان مات فقد مات أفضل أهل زمانه وروى عن عبد الله بن محمد البكري قال كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا ننذاكر العباد والزهاد فقال لي عمر ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعي خرجت أنا وهو والحارث بن ليبيد الى الصفا فافتتح الحارث بقرأ وكان حسن الصوت (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فرأيت الشافعي قد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جمل يقول أعوذ بك من مقام الكذابين واعراض الغافلين ألهمك خضعت قلوب العارفين وذات لك هبة المشتاقين إلهي هب لي جودك وجلاني بسترِكَ وأغف عن قصيري بكرم وجهك قال ثم قنا وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالمرأق فقعدت على الشط أنبيا للصلاة اذمر بي رجل فقال يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله اليك في الدنيا والآخرة فالتفت فاذا أنا برجل يتبعه جماعة فاسرعت في وضوئي وجعلت أقف أثره فالتفت الى فقال هل لك حاجة فقلت نعم تعلمني بما علمك الله تعالى شيئا فقال لي اعلم ان من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا

قوت عيانه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا أفلا أزيدك قلت بلى قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الايمان من أمر بالمعروف وانهى عن المنكر واتقى وحافظ على حدود الله تعالى ألا أزيدك قلت بلى قال كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا وأصدق الله في جميع أمورك تنجح مع التاجين ثم مضى فسألت من هذا فقالوا الشافعى فانظر الى حاله ومقاتلته وحكمته أخرج هذا من ربيع التكاح والجراح أو من علوم الآخرة المستفادة من الكتاب والسنة (وأما) كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فمعرفة من الحكم المأثور عنه (روى) أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة الرياء فتنة عقدها الهوى حيل أبصار قلوب العلماء فنظروا اليها بسوء اختيار النفوس فاجتبت أعمالهم وقال الشافعى إذا أنت خفت على عملك العجب فازكر رضا من تطلب وفي أى نعيم ترغب ومن أى عقاب ترهب وأى عافية تشكر وأى بلاء تذكر فانك اذا تفكرت في واحدة من هذه الحاصل صغر في عينك عملك فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب ومهما من كبار آفات القلب وقال الشافعى من لم يعن نفسه لم ينفعه علمه وقال من أطاع الله بالدم تقفه سره (وأما) ارادته بالفقه خاصة والمناظرة فيه وجه الله تعالى فيدل عليه ما روى عنه أنه قال وددت ان الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب الى منه شئ فانظر كيف أطلع على آفة العلم وطلب الاسم به وكيف كان منزله القلب عن الالتفات اليه متجردا لية فيه لوجه الله تعالى وقال الشافعى ما نظرت أحدا قط فاحسبت أن يخطئ وقال ما كلمت أحدا قط الا أحسبت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله عز وجل وحفظ وقال ما كلمت أحدا قط وأنا أبالي أن بين الله الحق على لسانى أو على لسانه وقال ما أوردت الحق والحجة على أحد فقباهما الا هبتته واعتقدت مردته ولا كابرني على الحق أحد ودافع الحجة الا سقط من عفى ورفضته (هذه) العلامات هي التي تدل على ارادته الله بالفقه والمناظرة فانظر كيف تابعه اناس من جملة هذه الحاصل الخمس دلى واحدة ثم كيف خالفوه فيها أيضا ولهذا قال أبو نور مارايت ولا رأى الراؤون مثل الشافعى وقال أحمد بن حنبل ما صليت صلاة منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعى فانظر الى انصاف الداعى والى درجة المدعو له وقس به الاقران والامثال من العلماء في هذه الاعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ولكثرة دعائه له قال له ابنه اى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء فقال أحمد بن حنبل يابى كان الشافعى

كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فانظر هل لهدين من خلف وقال أحمد ما أحد يمضى ويديه محبرة الا وللشافعى في عنقه منة

وأما مالك فانه كان متحليا بهذه الحاصل الخمس فانه سئل ما تقول يا مالك في طلب العلم فقال حسن جميل ولكن انظر الذى يلزمك من حين تصبح الى حين تمسى فالزمه وكان مالك رحمه الله في تعظيم علم الدين مبالغا حتى كان اذا أراد أن يحدث تواضاً وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث فقيل له في ذلك فقال أحب ان أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا التوقير يدل على معرفته بجلال الله تعالى وأما ارادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله الجدل في الدين ليس بشئ ويدل عليه قول الشافعى انى شهدت مالكا وسئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها لا أدري ومن يريد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمع نفسه بان يقر على نفسه بأنه لا يدري وروى ان ابا جعفر المنصور منته من زواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملاء من الناس ليس على مستكره طلاق فضر به بالسياط ولم يترك رواية الحديث وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ان الرشيد سأله فقال هل لك دار فقال لأفأعطاء ثلاثة آلاف دينار وقال اشتريها داراً فآخذها فلم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخص قال لمالك ينبغي ان يخرج معنا فأتى عزمت ان أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال له اما حمل الناس على الموطأ فليس الى ذلك سبيل لان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا بعده في الامصار فخذثوا فعند أهل كل مصر علم (وقد) قال عليه الصلاة والسلام اختلف أمتى رحمة وأما الخروج معك فلا سبيل اليه (قال) عليه الصلاة والسلام المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (وقال) المدينة تنفى خبيثها كما ينفى الكبير خبث الحديد وهذه دنائيركم كما هي ان شئتم نخذوها وان شئتم فدعوها يعنى انك انما تكفى مقارعة المدينة لما اصطفتته لدى فلا أوتر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونماحلت اليه الاموال الكثيرة من الاطراف فزورها ولم يمسك ودل سخاؤه على زهده ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعى انه قال رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبقال مصر مارايت أحسن منها فقلت له ما أحسنها فقال هي هدية منى اليك يا أبا عبد الله فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها فقال انى استحي من الله تعالى أن أطأربة فيها نبي

الله صلى الله عليه وسلم بحاجرة دابة فانظر الى سخاوته وتمظيمه وأما ارادته وجه الله فيدل عليه انه قال دخلت على هارون الرشيد فقال لي يا أبا عبد الله ينبغي ان تتخلف اليانا حتى يسمع صبيانا منك الموطأ قال قلت أعز الله الأمير ان هذا العلم منك خرج فان أنتم أعز زتموه عز وان أنتم اذلتموه ذل فان العلم يؤتى ولا يأتي فقال صدقت اخرجوا الى المسجد حتى تسمعوا الحديث مع الناس

وأما أبو حنيفة رحمه الله عليه فيدل على كونه عابداً ما روى عن ابن المبارك رحمه الله انه قال كان أبو حنيفة رحمه الله له قراءة وكثرة صلاة وأما علمه فلا يخفى على أحد وروى حماد بن أبي سليمان انه كان يحكي الليل كله وروى انه كان يحكي نصف الليل فانار اليه انسان وهو يمشي وقال هذا هو الذي يحكي كل الليل فلم يزل بعد ذلك يحكي كل الليل وقال انا استحي من الله تعالى ان أوصف بما ليس في من عبادته وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال أرساني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بابي حنيفة عليه فأزاده على بيت المال فابى فغضبه عشرين سوطاً فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب وروى انه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بمخذاً فبرها فابى وفر منها وروى انه قيل لابي حنيفة رحمه الله قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم قال فارضى أبو حنيفة رحمه الله فلما كان في اليوم الذي توقع ان يؤتى بالمال صلى الصبح ثم تلبس ثوبه فلم يتكلم بخاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه فقال من حضر لا يكلمنا الا بالكلمة بعد الكلمة أى هذه عادته فقال ضموا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ثم أوصى أبو حنيفة رحمه الله بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه اذا مت ودفنتموني فخذ هذه البكرة واذهب بها الى الحسن بن قحطبة وقل له هذه ودينتك التي أودعتها أبا حنيفة رحمه الله قال ابنته ففعلت ذلك قال الحسن رحمه الله على أيك ان قد كان شجاعاً على دينه وروى انه دعى الى ولاية القضاء فابى وقال لا أصلح له قيل لم قال ان كنت صادقاً فلا أصلح له وان كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء وأما علمه بأمور الآخرة وطرق الدين ومعرفة بالله تعالى فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا قال شريك التميمي كان أبو حنيفة رحمه الله طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس وهذا من أوضح الدلالات على علم الباطن والاشتغال بمهمات الدين

وأما أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله فمؤرخان مشهوران وكلماتهما في أسرار العلوم وآفات النفوس والأعمال مشهورة وهي أكثر من أن نحصى ويعرف ذلك من كتاب حلية الأولياء

وقد أكثرنا الرواية عنهم في كتاب الاحياء فانظر الآن في سيرة هؤلاء الأئمة وتأمل أحوال متبعيهم وانظر ان هذا الزهد والمعرفة بشمرها علم المعاملات والخصومات أم أنواع أخر من العلم أعرض الناس عنها واستغرقوا العمر بما يتعلق بمعاملات الخلق لما فيه من كسب الجاه والمال والله أعلم

الباب الرابع في اقسام العلوم

وما هو مهم وماليس بهم وينقسم غير المهم الى المباح والمذموم وينقسم المهم الى فرض العين وفرض الكفاية وفيه فصول

الفصل الاول في اقسام العلوم

فنقول العلوم تنقسم الى شرعية وغير شرعية ونعني بالشرعية ما يستفاد من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يرشد اليه العقل كالحساب ولا التجربة كالطب ولا السماع كاللغة وهي أغنى الشرعية وهي المقصود بالبيان تنقسم الى أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة ضرب الضرب الاول الاصول وهي أربعة كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجماع الامة وآثار الصحابة والاجماع أصل من حيث انه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثانية وكذلك الاثر أيضاً فانه يدل على السنة لان الصحابة شاهدوا الوحي والتزيل وادركوا بقرائن الاحوال ما تنضيق العبارة عن نقله فرأى بعض العلماء لذلك الاقتداء بهم والتسلك بآثارهم وذلك على شرط مخصوص وفي موضع مخصوص وليس هذا موضع بيانه الضرب الثاني الفروع وهو ما فهم من هذه الاصول لا بموجب ألفاظها بل بما تبيحت لها العقول فأتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ غيره كما فهم من قوله تعالى الله عليه وسلم لا يقض القاضي وهو غضبان انه لا يقضى اذا كان حائفاً أو جائعاً وهذا على ضربين أحدهما ما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه في الفقه والمتكامل به الفقهاء والثاني ما يتعلق ببيان سلوك طريق الآخرة وهو علم أحوال القاب وأخلاقه المذمومة والمحمودة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه وهو الذى يحويه الشطر الآخر من كتاب احياء علوم الدين أعنى ربيع المهلكات وربيع المنجيات ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها وهو الذى يحويه الشطر الاول منه الضرب الثالث المقدمات وهو الذى يجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والتجويد فانه آلة لمعرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله لا من حيث ذاته لكن من حيث نزلت الشريعة بهذه اللغة فتعين تعلمها لذلك ولو نزلت بلغة أخرى لازم تعلم تلك اللغة بل من الآلات علم كتابة الخط لكنه ليس ضرورياً اذ الحفظ قد

يستقل به فقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً ولكنه بحكم العجز في الغالب أيضاً صار ضرورياً الضرب الرابع المتممات وذلك في علم القرآن مثلاً ينقسم الى ما يتعلق باللفظ كعلم القراءة ومخارج الحروف والى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير المنقول فان اللغة بمجردھا دون النقل لا تستقل به والى ما يتعلق بأحكامه كعرفة الناسخ والمنسوخ والعالم والخاص والنص والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً وأما المتممات في الاخبار والآثار فكالعلم بالرجال وأسائهم وأسماي الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة وأقوال الرواة لى تمييز الصحيح عن السقيم فهذه أقسام العلوم الشرعية ومراتبها

الفصل الثانى في بيان فروض الاعيان من جملة العلوم

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة واتفقت الامة على ان من العلوم ما هو فرض عين على كل مسلم واختلفوا في تعيينه وتخربوا فيه أكثر من عشرين حزبا ولا نطول بنقل التفصيل ولكن حاصله ان كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصده ولم تسمح نفسه بان يكون العالم القائم باهم العلوم غيره والا هم ما هو فرض العين لاحالة فقال المتكلمون هو علم الكلام اذ به يحصل معرفة الله تعالى وصفاته وبه يصح الايمان وقال الفقهاء هو علم الفقه اذ به تعرف العبادات والحلال والحرام في المعاملات وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة فانها مبدأ معارف العلوم الدينية وقال المتصوفة المراد به علمنا فقال بعضهم هو علم العبد بحاله ومقامه من الله تعالى وقال بعضهم هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتميز لمة الملك عن لمة الشيطان وقال أبو طالب المكي في قوت القلوب هو العلم بمباني الاسلام الخمسة المذكورة في قوله عليه الصلاة والسلام بنى الاسلام على خمس لان هذه هي الواجبات من الاعمال فيجب علمها ونحن نكشف الغطاء عن هذه المسئلة بما لا يستريب فيه محصل ولا يبقى للخلاف معه وجه فنقول العلم ينقسم عندنا الى علم مكاشفة كإسائى بيايه والى علم معاملة ونظرنا الآن في علم المعاملة والمعاملة التى كلف بها العبد المكلف ثلاثة أقسام اعتقاد وفعل وترك فاذا بلغ الرجل بالاخلاص أو السن ضحوة النهار مثلاً فاول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معنى قوله لا إله الا الله محمد رسول الله وليس عليه ان يحصل ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتخبرر الأدلة بل يكفي ان يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسمع وقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب

بمجرد التصديق ولم يشغلهم يتعلم الأدلة المحررة فاذا فعل ذلك فقد أدى فرض الوقت وكان العلم الذى هو فرض عينه ذلك وليس عليه أمر وراء هذا في الوقت بدليل انه لو مات عقيب مات مؤمناً ولم يمت عاصياً وانما يجب غير ذلك على الشخص بأمر عارض وليس ذلك العارض ضرورياً في حق كل شخص وذلك العارض إما أن يكون في الفعل أو في الترك أو في الاعتقاد اما الفعل فإن يعيش من ضحوة النهار الى وقت الظهر فيتجدد عليه وجوب علم الطهارة والصلاة لتجدد وجوبهما فان عاش الى رمضان تجدد وجوب علم الصوم وانه يجب النية والامساك عن المفطرات وكيفيتهما وان كان له مال وتمت السنة وجب عليه علم الزكاة فان ملك النعم لم يلزمه علم زكاة التقد وان ملك التقد لم يلزمه علم زكاة النعم فاذا دخلت أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة الى الحج ولا الى علمه لانه على التراخي ولكن على علماء الاسلام تنبيهه على ان في تأخيرها خطر المصيرية فرمى يرى الحزم في المبادرة فيعلم علم الحج ولا يلزمه الا تعلم أركانه وواجباته وأمنوافله فعلم علمها نفل وليس بواجب وكذلك التدرج في علم سائر الاعمال وأما الترك فيجب علم ذلك بحسب ما يتجدد من الاحوال وذلك يختلف بحال الشخص فلا يجب على الا بكم تعلم ما يحرم من الكلام ولا على الاعمى تعلم ما يحرم من النظر ولو كان في الحال لا بسا حريراً أو جالساً في دار مقصوبة فيجب تعلمه تحريم ذلك وتحذيره منه وكذلك ما ليس ملائسا له ولكنه يتعرض له على القرب كالأكل فلهما كان في بلد يتعاطى فيه الحمر والخنزير فيجب تعليمه ذلك ويجب عليه تعلمه وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب تعلمها بحسب الخواطر فان خطر له شك في معنى كلمة التوحيد وجب عليه تعلم ما يزيله فان لم يخطر بباله ذلك ومات قبل ان يخطر له ان كلام الله قديم وانه يجوز رؤيته الى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقدمات على الاسلام اجماعاً ولكن هذه الخواطر بعضها يخطر بالطبع وبعضها بالسماع من أهل البدع وان كان في بلد شاع فيه علم الكلام وتناظر فيه أهل البدعة فينبغي ان يصاب في أول بلوغه عن ذلك بتلقين الحق لانه لو سبق الى سماعه الباطل أولاً ربما علق به وعسر ازالته فن علم العمل الواجب علم ان علم ذلك العمل واجب لكن في وقت وجوب العمل وما ذكره الصوفية من فهم خاطر الشيطان ولة الملك فهو أيضاً حق لمن خطر له لا نأ نعلم ان الغالب ان الانسان لا يتفك عن دواعي الشر والراء والكبر والحسد والغضب والحقد فيلزمه ان يتعلم ما ذكرناه في ريع المهلكات من كتاب احياء العلوم ما يرى نفسه محتاجاً اليه وكيف لا يجب ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث

مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وما ينفك الانسان عنها الا بالرياضة التامة الحلقة وسائر الصفات المذمومة تتبع هذه المهلكات الثلاث وكلها مذمومة محرمة يجب تطهير القلب عنها ولا يمكن الحذر منها الا بعد معرفتها ومعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاجها اذ معنى العلاج مقابلة السبب بالضد فلا يعرف العلاج دون معرفة السبب ولا يعرف السبب دون حده وحقيقته وهو العلم الذي اودعناه ربيع المهلكات وذلك من فروض الاعيان على كافة الخلق وقد اعملوا علمه وعمله ومنه عم الفساد فان القلب منزلته منزلة الراعي والجوارح رعاياه واذا فسد الراعي كيف يرجى صلاح الرعايا فلم الاخلاق المحمودة والمذمومة من صفات القلب من أهم العلوم والحاجة اليه أهم الحاجات ومما ينبغي ان يبادر في لقائه اليه اذا لم يكن قد انتقل من ملة أخرى الايمان بالجنة والنار والحشر والنشر والحساب والسؤال وبالجملة اليوم الآخر فانه تمه كملت الشهادة فان المراد من تصديق الرسول تصديقه فيما ورد به ولم يرد الا بكلمة واحدة وهو ان من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاه فله النار فبعد هذا التصديق يتعلم كيفية الطاعة ليعمل وماهية المعصية ليتجنب واذا تبنت لهذا التدرج علمت ان كل عبد فهو في مجارى أحواله ليس ينفك عن لزوم علم من جملة العلوم وان لم يكن ذلك علماً واحداً معيئاً في جميع الاحوال ولجميع الاشخاص وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالالف واللام فقال طلب العلم فريضة ولم يرد به كل علم ولا علماً معيئاً لكن المراد به جنس العلم على الجملة والله أعلم بالصواب

الفصل الثالث فيما هو فرض كفاية من العلوم

اعلم ان العلوم الدينية التي ذكرناها من الاضراب الاربعة كلها من فروض الكفايات اذ آحادها قد تصير فرض عين على الآحاد على اختلاف الاحوال فيكون جماعتها فرض كفاية على معنى انه لو خلى البلد عن يقوم بعلم منها عم الحرج أهل البلد كافة لا سيما المتمكنون منه على يسر وهذه العلوم تنجب على طائفة لا بعينها ولذلك قال الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) كما قال في الأمر بالمعروف (ولكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف) فالخطاب مع الجميع بان يكون منهم أمة ويخرج منهم فرقة فان خرجت فرقة سقط الحرج عن الجميع والا خرجوا ثم لا يختص هذا بالعلوم الدينية بل يدخل فيه كل علم لاغنى للخلق عنه كعلم الطب الذي يحتاج اليه املاج المرضى وعلم الحساب الذي يحتاج اليه في قسمة الموارث والوصايا وعلم المساحة التي يحتاج اليها في قسمة الاراضي بل يتعدى

هذا الى الصناعات كالجياكة والزراعة والحيز والطحن حتى الحجامة مثلا من فروض الكفاية فلو خلى البلد عن الفصاد خرجوا (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجوا كيلا يتبيخ بكم الدم فيقتلكم والذي أنزل الداء أنزل الدواء فلا يجوز التعرض للهلاك واهمال مداواة فاذا عرفت هذا فاعلم ان القيام بفرض الكفاية من علوم الدين من جملة العبادات الا ان من اشتغل به قبل الفراغ من فرض العين فقد تعرض لسخط الله تعالى كالذي وجب عليه رفع اليد عن ودعة طوبى بها في الحال فقام واحرم بالصلاة ولو بالمكتوبة في أول الوقت فانه يعصى به لا لكونه مصلياً ولكن لتضمن صلاته ترك ما هو واجب على الفور ولكونه تاركا للترتيب في الواجبات كما يعصى من يسجد قبل الركوع في صلاته وان لم يعص بنفس السجود من حيث انه سجد وفرض عين على كل شخص تطهير جوارحه عن المعاصي وتطهير قلبه عن الاخلاق المذمومة من الكبر والعجب والريا والحسد وغيره ثم اذا فرغ من فرض العين فلا بد من ترتيب في فروض الكفايات فالاشتغال بفرض كفاية قام بها جماعة واهمال فرض كفاية معطل لاقائم به لاوجه له أيضا بل ينبغي ان يقدم الاهم فالاهم ماهو في حرج بسببه وان لم يكن الحرج مختصا به ولكن كون غيره في الحرج والاثم لا يخرج عنه كونه متعزاً له

الفصل الرابع في بيان تفصيل علوم الآخرة

قد بينا ان العلوم تنقسم الى ما يتعلق بمصالح الدنيا كعلم الفقه والى ما يتعلق بسلوك طريق الآخرة ولعلك تحتاج الى تفصيل علوم الآخرة وان كنت مستغنيا عن معرفة تفصيل علوم مصالح الدنيا لاشتهاره ولا تدراس علوم الآخرة واحتفائه فاقول العلوم المتعلقة بسلوك طريق الآخرة تنقسم الى علم مكاشفة والى علم معاملة وأعنى بـعلم المعاملة ما يراى من علمه العمل وبعلم المكاشفة ما يراى منه الكشف والمعرفة فقط دون العمل وعلم المكاشفة هو العلم الخفى الباطن وهو غاية العلوم ومقصدها بل هو المراد من جميع العلوم وجميع العلوم انما يراى للتوسل والتضرع بها اليه وهو العلم الذي به فضل أبو بكر سائر الصحابة رضى الله عنهم أجمعين حيث (قال) صلى الله عليه وسلم ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولكن بشئ وقر في صدره وهو العلم الذي قيل انه مات تسعة أعشاره بموت عمر رضى الله عنه فقيل كيف يقول هذا وفيما جملة كبار الصحابة فقال لست أريد علم الفتوى والاحكام وانما أريد العلم بالله تعالى وهو الذي أراده النبي عليه الصلاة والسلام قال ان من العلم كثرة المكنون لا يعلمه الا أهل المعرفة بالله فاذا نطقوا به لم يحمله الا أهل الاقرار بالله تعالى فلا تحقروا علماً آناه الله تعالى علماً فان الله تعالى لم

يحقره اذ آتاه العلم وفيه قال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى التصيب منه التصديق به وتسليمه لاهله وقيل من كان عباً للعالم أو مصرأ على هوى لم يتحقق بهذا العلم وقد يتصور ان يتحقق بغيره من العلوم واقل عقوبة من ينكره ان لا يرزق منه شيئاً وهو علم الصديقين والمقربين وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهره وتركه من صفاته المذمومة بالرياضة الصادقة ينكشف في ذلك النور حقائق أمور كان يسمع من قبل أسماءها ويتوهم لها معاني مجمة غير متضحة فيتضح ذلك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى وصفاته التامات وبأفعاله العجيبة في خلق الارض والسموات وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة التي ووجه الحاجة الى ارسال الرسل ومعرفة رتبة النبي عليه السلام ونسبته الى رتبة الملائكة والى سائر الخلق وكيفية كونه واسطة بين الملائكة وبين الخلق وكيفية وصول الوحي اليهم من الملائكة وكيفية ظهور الملك لهم تارة في صورته الحقيقية وتارة في كسوة الامة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة رؤيته لجبريل مارآه في صورته الحقيقية الامرتين ويتصل بمعرفة ذلك معرفة حقيقة القلب ووجه نسبته الى عالم الآخرة والملكوت بخافية في ذاته تظهر تلك الخاصية عند ركود الحواس بالنوم حتى يطلع به على الغيب وعلى مافي المستقبل وهو غائب عن هذا العالم اذ كان في هذا العالم بواسطة الحواس وقد ركدت واذا انكشف تردد القلب بين العالمين انكشف معنى لمة الملك ولة الشيطان وكيفية تصادم جنود الملائكة وجنود الشياطين في القلب فاذا عرفت حقيقة القلب وخواصه عرفت انه من عالم الآخرة والملكوت وانه غريب جوهره في هذا العالم وانه لم يسافر الى عالم الغربة الا للتردد والاستعداد للرجوع الى مستقره ووطنه الاصلى الذي منه مبدؤه ومصدره واليه مرجعه ويتصل بمعرفة المرجع والمستقر معرفة حقيقة الآخرة وهي الجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ومعنى قوله تعالى (وان الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعلمون) ومعنى لفاء الله تعالى والوصول اليه والنظر الى وجهه الكريم والنزول في جواره ومعنى مرافقة الملاء الاعلى ومقارنة الملائكة واليبيين ومعنى تفاوت درجات أهل الجنة حتى يرى بعضهم بعضاً كما يرى الكوكب الدرى في جو السماء ومعنى (قوله) عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة وبالجملة فهو معرفة جميع ماورد في ذات الله تعالى وفي صفاته وأفعاله وفي اليوم الآخر اذ لناس في معاني هذه الامور بعهد التصديق باصولها

مقامات فبعضهم يرى ان جميع ذلك أمثلة وان الذى أعده الله تعالى لعباده الصالحين بمالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وانه ليس من الجنة مع الناس الا الصفات والاسماء ويكاد يتداعى هذا الى افراط في رفع الظواهر وبعضهم يرى ان حقائق جميعها هي المفهوم من ظواهرها ليس فيها كناية ولا مثال ولا يخلو هذا عن تفریط وتجاهل وانتساب الى مذهب الحشوية القريب رتبته من رتبة العوام وبعضهم يرى ان بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من الفاظها ويرى بعضهم ان منتهى معرفة الله تعالى الاعتراف بالعجز عن معرفته وانه لا يعرف الله الا الله وبعضهم يدعى لنفسه أموراً عظيمة كالاتحاد والحلول وأنواع من الهزايات وبعضهم يقول منتهى معرفة الله ما يعتقد العوام من انه موجود عالم قادر سميع بصير متكامل فعنى يعلم المكاشفة ان يرتفع الحجاب عن قلبه حتى يتضح له جلية الحق في هذه الامور اتصاحا بجري مجرى العيان الذى لاشك فيه وهذا يمكن في جوهر الانسان لولا ان مرآة القلب قد تراكم صداؤها وخبثاها بقاورات الدنيا واليه أشار صلى الله عليه وسلم حيث (قال) لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء واليه الاشارة بما أوردناه من وحيه تعالى الى بعض الانبياء لا تقولوا العلم وراء البحار من يعبر يأت به وانما العلم بمجموع في قلوبكم تأدبوا بآداب الروحانيين الحديث كما سبق فهذا الجنس هو المراد بعلم المكاشفة ولا سبيل اليه الا بعد احكام علم المعاملة ولا يكفى في علم المعاملة دون المعاملة ومعنى المعاملة تصفيل مرآة القلب عن كدورات الدنيا وخبثات الاخلاق وظلمات الشهوات التي هي الحجاب عن الله تعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله فبقدر ما تنقل مرآة القلب وتجلي عن الخبث ويحاذى به شطر الحق يتلأأ فيه حقائقه كما يتلأأ في المرآة المجلوة صورة السماء مثلاً اذا حوذى بها نحوها ولا سبيل اليه الا بالرياضة ومعنى الرياضة تزكية القلب عن الصفات المذمومة وتحية بالصفات المحمودة وقد أودعنا هذا العلم الشطر الاخير من كتاب الاحياء وهو ربيع المهلكات وربيع النجيات ولعلك الآن تحب ان تسمع تراجم هذه الصفات لتطلع على جل هذا العلم اعنى علم المعاملة كما أطلعت على بعض تراجم علم المكاشفة (فاقول) علم المعاملة يرجع الى معرفة أحوال القلب اما ما يحمده منها فكالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاوة ومعرفة المنه لله تعالى في جميع الاحوال والاحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة (٦ - فاتحة العلوم)

والصدق والاخلاص فمعرفة حقائق هذه الاحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب واضدادها التي تبطلها وآثارها حتى تختبئ وعلاجاتها وعلاج ماضع منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة وامامها يذم مخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحسد والحقد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والافتقار والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والبذخ والاشهر والبطر وتعظيم الاغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والمناقشة والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض في الباطل وفيما لا يعني وحب كثرة الكلام والصفاء والزين للخلق والمداينة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن عن القلب وخروج الخشية وشدة الانتصار للنفس اذا نالها ذل وضعف الانتصار للخلق واتخاذ اخوان الدنانية على عداوة السر والامن من مكر الله تعالى في سلب ما اعطى والاشكال على الطاعة والمنكر والحيانة والخداعة وطول الامل والتسوية والفظاظة والفرح بالدنيا والاسف على فواتها والانس بالخلقين والوحشة بفراقهم والحفا والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الاعمال المحظورة واضدادها وهي الاخلاق المحمودة منبع الطاعات فالعلم بمحدود هذه الامور وحقائقها وأسبابها وعلاجها هو علم طريق الآخرة وهو فرض عين في تنوير علماء الآخرة والمعرض عنه هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة كما ان المعرض عن الاعمال الظاهرة هالك بسطوة سلاطين الدنيا بحكم قنوى فقهاء الدنيا ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الاخلاص والرياء وما هو مبتلى به في جميع الاوقات لم يعرفه وربما حفظ تقاريع نادرة في الطلاق والجراح مما لا يحتاج اليه الا نادراً

الفصل الخامس في بيان العلم الاقصى وبيان نسبة العلوم اليه بالموازنة بمثال لكي تعرف مراتب العلوم فلا تؤثر الادنى على الارفع والتابع على المتبوع

اعلم ان العزيز والرفيع انما يكون عزيزاً بالاضافة اليك والى ما يهيمك ولا يهيمك الا شأنك في الدنيا والآخرة فاذا لم يمكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وهو قوله (اذهبت طبيعتكم) وشهد من نور البصائر ما يجري مجرى البيان فالاهم ما يتبع ابد الآباد وهي السعادة الابدية وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والاعمال سعيّاً الى المقصد ولا مقصد الالتقاء الله تعالى فقيه التعميم كله وان كان لا يدرك في هذا العالم قدره الا الاقلون والعلم بالاضافة الى سعادة لقاء الله تعالى والنظر الى وجهه

الكرام على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو ان العبد الذي علق عقله وتمكنه من الملك على الحج وقيل له ان حججت وأتممت وصلت الى العتق والملك جميعاً وان ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقبك في الطريق عائق ضروري فلك العتق والخلص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك وله ثلاثة أصناف من الشغل (الاول) تهية الاسباب كشرء الناقة وخزير الراوية وإعداد الزاد والراحلة (والثاني) السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه الى الكعبة منزلاً بعد منزل (والثالث) الاشتغال باعمال الحج ركناً بعد ركن ثم بعد الفراغ من الاركان يستحق العتق والتعرض للملك والسلطنة وله في كل مقام منازل من أول إعداد الاسباب الى آخرها ومن أول سلوك البوادي الى آخرها ومن أول أركان الحج الى آخرها وليس قرب من ابتداء بركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتداء بالسلوك بل قرب من قرب من الفراغ منه فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام (قسم) يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشرء الناقة وهو كعلم الفقه اعنى ما يتعلق منه بمصالح معاملات الخلق (قسم) يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشائخة التي عجز عنها الاولون والآخرون واحدى عقباتها البخل وحب المال وعنه العبارة بقوله تعالى (وما أدريك ما العقبة فك رقية أو اطعام في يوم) الآية ولا حجاب بين العبد وبين الله تعالى الا هذه العقبات التي هي صفات القلب وتحصيل علمه كتحصيل علم طريق الحج ومنزله وكما لا يعني علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها ولا يعني حفظ الادوية وكيفية طبخها دون شربها فكذلك لا يعني علم تهذيب الاخلاق دون مباشرة التهذيب لكن المباشرة دون العلم غير ممكن (قسم) ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو من كتاب الاحياء وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة يرجع الى العلم بالملك والمملوك فهذا هو العلم الاقصى وماعده من العلوم "توابع ومقدمات كلها تراد لهذا العلم وهذا العلم يراد لذاته لا لغيره فالسعادة الابدية معلقة بلقاء الله تعالى وهي معلقة بعلم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة الذي هو قطع عقبات الصفات وعلم قطع العقبات وراء علم سلامة البدن وانتظام أسباب المعيشة في الدنيا التي هي الزاد الى طريق الآخرة بالاجتماع والتعاون وحسن المعاملة مع الخلق الذي يتوصل به الى الملبس والمطعم والسكن بالسلطان وقانون ضبط السلطان للناس على نهج العدل في المعاملة في ناصية الفقيه كما ان قانون ضبط اخلاص البدن على نهج الاعتدال في ناصية الطبيب ومن قال العلم علماً علم الابدان وعلم الاديان

أشار الى هذا العلم الظاهر المتعلق بمصاحبة البدن وأسباب المعيشة (فان قلت) لم شبهت علم الفقه بأعداد الزاد والراحة فاعلم ان الله تعالى أخرج آدم من التراب وأخرج ذريته من سلالة من ماء دافق وأخرجهم من الاصلاب الى الارحام ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ثم الى العرش ثم الى الجنة أو الى النار فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناولوا منها ما يصلح للزود فلو تناولوا منها قدر الزاد بالعدل لانقطعت الخصومات وتعلم الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات وضائق أعيان الاموال والانفس عن الوفاء بجميع الشهوات فتولد منها الخصومات فست الحاجة الى تمهيد قانون في بيان حدود الاختصاصات بالشكوك والمطعومات وسائر المطلوبات الدينية وهو العلم الذي يتولى الفقيه يانه في ربيع المعاملات والشكك والجراح ومست الحاجة الى سلطان يسوسهم ويحكمهم على الحدود الفاصلة للاختصاصات فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الحلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فالفقيه هو معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ووجه تعلقه بالدين ان الدنيا منزل من منازل الآخرة بل هي مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا ولذلك قيل الدين والملك توأمان والدين أصل والسلطان حارس ومالا أصل له فهو دهم ومالا حارس له فضايع فعلوم ان الحج لا يتم الا ببذرة تحرس من العدو في الطريق ولكن الحج شيء وسنوك الطريق الى الحج شيء آخر والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج الا بها شيء آخر ومعرفة طريق الحراسة وحيلها أمر آخر فالفقيه يتولى تعريف طرق الزود من الدنيا التي هي منزل من منازل الآخرة وانما المقصد الاقصى لقاء الله تعالى والساعي الى الله تعالى لينال قربه هو القلب ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس الذي تشارك فيه الميت والبهيمة بل سر أمر الله تعالى ولفيفة من لطائفه لا يدركها الحس يعبر عنها تارة بالروح وأخرى بالنفس المطمئنة والشرع يعبر عنها بالقلب لانه المطية الاولى لذلك السر ولا رخصة في كشف الغطاء عن حقيقة الا أن يقال هو أمر شريف رباني كما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) والمقصود ان هذه اللطيفة هي الساعية الى قرب الحضرة الربوبية واما البدن فمطيتها التي تركها وتسمى بواسطتها لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في طريق الحج فكل علم مقصده الاول مصالح البدن ومصالح معيشة البدن في الدنيا فهو علم مصالح المطية ولا ينبغي عليك ان علم الطب كذلك فانه يحتاج اليه في حفظ البدن ولا يمكن عبادة الله تعالى الا بقيام البدن ومحتة فكذلك لا يمكن الا بانتظام أسباب المعيشة ولا يتم ذلك الا بالاجتماع والتعاون وتصادم

الشهوات عند التنازع في الاغراض يفضى الى التقاتل الذي هو سبب الهلاك من خارج كما ان تصادم الاخلاط في الباطن يفضى الى الهلاك من باطن وبعلم الطب يحفظ الاعتدال في الاخلاط المتنازعة من داخل وبالسباسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج وعلم طريق الاعتدال في الاخلاط طب وعلم طريق اعتدال الاحوال بين الناس في المعاملات والافعال فقه وهو متعلق بمصالح المطية في المنزل الاول من منازل الآخرة فمن تجرد للفقه ولم يصلح نفسه بقطع عقبات الصفات وملازمة جادة التقوى في الاخلاق والاعمال كمن تجرد لشراء الثاقل وعنفها وشراء الراوية وخزرها ومستغرق العمر في دقائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الاسباب التي بها تستحكم الحيوط لحز الراوية تالحج ونسبة هؤلاء من السالك لطريق اصلاح القلب أو الواصل الى علم المكاشفة كنسبة أولئك الى السالكي طريق الحج أو ملاسي أركانه فتأمل هذا واقبل النصيحة مجانما قام عليه ذلك غالباً ولم يصل اليه الا بعد جهد شديد وجرة تامة على ميانة العامة بالتزوع عن تقليدهم بمجرّد الشهوة (فان قلت) لقد شبهت الفقه بالطب وهذا غاية الغرض من درجة الفقه والفقهاء (فاقول) حاشي لله أن أسوى بين العلمين في الشرف والرتبة لا وجه ثلاثة أحدها ان الفقه علم ديني شرعي أي هو مستفاد من النبوة والطب علم حسي مستفاد من التجربة والثاني ان الطب لا يحتاج اليه الا مريض والفقه يحتاج اليه المريض والصحيح بل لا يستغنى عنه أحد من سالكي طريق الآخرة فانه مقدمة من مقدمات سلوك الطريق كما سبق والثالث ان علم الفقه مجاور العلم طريق الآخرة لانه نظر في أعمال الجوارح ومصدر الاعمال ومنشأها صفات القلب فالمحمود من الاعمال يصدر عن الاخلاق المحمودة المنتجة في الآخرة والمذمومة تصدر من المذموم ولا ينبغي اتصال الجوارح بالقلب واما الطب فتصرف في تعديل المزاج ولا تعلق له بالامور الدينية ولعلك تقول جعلت الفقه مجاوراً لعلم طريق الآخرة فهلا جعلته متعلقاً بطريق الآخرة مقصوداً فان المجاورة ان سلمت لك في أحكام الحدود والجراحات والغرارات وفصل الخصومات فلا تسلم لك فيها يشتمل عليه الفقه من العبادات والصيام والصلاة والحلال والحرام (فاقول) اعلم ان أقرب ما يتكلم فيه الفقه من الاعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة الاسلام والعبادات والحلال والحرام فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت انه لا يجاوز حدود مصالح الدنيا الى الآخرة أما الاسلام فيتكلم الفقيه فيها يصح منه ويفسد وليس يلتفت فيه الا الى اللسان وأما القلب فنحارج عن ولاية الفقيه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث (قال) هلا شققت عن قلبه بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت

ظلال السيوف مع انه يعلم ان السيف لم يكشف له عن شبهة ولم يرفع عن قلبه غشاوة الجبل ولكنه مستور عن صاحب السيف فان السيف يمتد الى رقبته واليد الى ماله ومعنى حجة اسلامه عند الفقيه انه يعصم ماله ورقبته ولذلك قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم امره عليه فقال فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم فهذا الاسلام يصح بالاضافة الى دمه وماله الذي يبقى معه الى الموت بحيث لا مال ولا رقبة وذلك بعد الموت فلا ينفعه الا النور الذي به ينشرح الصدر للاسلام والفقيه لا يتكلم في حقيقة ذلك النور ولا في اسبابه من تزكية القلب وتصقيه بالرياضة فان خاض الفقيه فيه كان كالو خاض في الطب والحساب ولم يكن باعتبار كونه فقيهاً وأما العبادات فالفقيه يفتي بصحتها اذا أتى بصورة الاعمال وان كان غافلاً من أولها الى آخرها متردداً بفكاره في معاملات السوق ويكتفي بحضور القلب مع التكبير في الصلاة مثلاً في لحظة وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة كبير نفع بل (قال) صلى الله عليه وسلم لا يكتب للرجل من صلاته الا ما عقل منها وذلك بالخشوع واحضار القلب ودفع الوسوس عنه ولكن يريد بالصحة انما مثل صيغة الامر بالصلاة فاندفع عن سيف السلطان بالقتل وهو منوط بصورة الاعمال كما ان السيف في الكفر أيضاً منوط بصورة كلمة الاسلام باللسان واما الزكاة فينظر الفقيه فيها الى ما يقطع طلب السلطان وربما يحكم ببراءة ذمته اذا أخذ السلطان منه قهراً ولا يجوز في بيان ممر الزكاة وان مقصودها تطهير النفس عن رذيلة البخل فهي طهره عنه ولذلك كانت الزكاة كفسالة النجاسة حتى رفع منصب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقاربه عن عرسه وأوساخ أموال الناس فالفقيه لا يلتفت الى الوجه الذي به يكون اخراج الزكاة تطهيراً للقلب عن خبث البخل بل ربما أفتى بما يخالفه نظراً الى الظاهر الذي هو حده ودرجته في النظر فنقول ما يحكى عن أبي يوسف رضى الله عنه انه كان يهب ماله في آخر السنة لزوجه وتب ما لها ليسقط الزكاة عنهم وهذا قد يستجيزه الفقيه ويستدل به على فقه نفسه وهو على التحقيق ضدم مقصود الزكاة لان غرض الزكاة تطهير القلب عن ضرر البخل وهذا يؤكده داعية البخل ويستمددها لان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف بالاهلاك الشح المطلق بل الشح المطاع وانما يصير مطاعاً بمثل هذه الحيل في دفع العبادات فبه يصير مهلكاً والفقيه يكتب به لانه ينظر الى الظاهر ويقول أمر باخراج الزكاة عما بقي في ملكه سنة وهذا الملك قد زال قبل انقضاء السنة فهذا نظر في الزكاة (وأما الحلال والحرام) فالورع فيه له أربع درجات (الاولى) ورع العدالة وهو الذي يخرج به الانسان عن أهلية الشهادة والقضاء وهو الاحتراز عن الحرام

الظاهر (والثانية) ورع الصالحين وهو التوقى من الشبهات ومظان الرب قال صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك (الثالثة) ورع المتقين قال صلى الله عليه وسلم لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس وذلك كالورع عن حديث الناس خوفاً من الانجرار الى الغيبة وكالتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النفس والبطر (والرابعة) ورع الصديقين وهو الاعوان من المؤمنين صلى الله عليه وسلم وعن كل عمل ليس لله خالصاً وسيأتي تفصيل هذه الدرجات من حيث مجموعها خارج عن نظر الفقيه الا الدرجة الاولى وهو ورع العدول الذي هو مناط الشهادة والقضاء والقيام بمجرد ذلك لا يفتي بخطر الآخرة قال صلى الله عليه وسلم لو ابصت استفت قلبك وان أتوك وأنتوك وقال الأئمة جواز القلوب والفقيه لا يتكلم في جواز القلوب وان خلط ذلك بالفقيه كان كالمو خلط النخو والحساب والطب فانه ربما مزج شيئاً من ذلك بعلمه ولكن لا يكون من نفس علمه ومقصوداً به فهذا يعلم ان جميع نظر الفقيه يتعلق بالدنيا التي هي صلاح الآخرة لا بنفس طريق الآخرة وليس ما ذكره غرضاً من درجة الفقه والفقهاء في نفسه لكن بالاضافة الى العلم الذي ينط الفلاح به حيث قال الله تعالى (قد أفلح من زكاه) وقال قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى (فالعلم الذي به يحصل التزكية للقلب وملازمة الصلاة المقرونة بحضور القلب الذكر وايقار الآخرة التي هي أبقى على الدنيا المشرفة على الانقضاء أرفع من العلم الذي يتعلق بمصالح معيشة من يتزود لسلوك هذا الطريق فهذا على هذا الوجه ينبغي ان يفهم والله الهادي

الباب الخامس في شروط المناظرة وآفاتهما وبيان سبب اقبال الخلق عليها

اعلم ان الاعصار قد اختلفت في اقبال الخلق على أنواع العلوم فالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولها الحلفاء الراشدون وهم أئمة مستقون بالفتوى كانوا لا يستعينون بالفقهاء الا في وقائع نادرة وكان الاسلام في زمانهم على طراوته فلم يكن لهم رغبة في العلم الا الله تعالى فلا جرم كان اشتغالهم بمهمات الدين ومراقبة القلب وملازمة التقوى وطلب علم الحديث والقرآن للعمل والهداية لا للرواية فاقبلوا على الله تعالى بكنه همهم فلما انقضى عصرهم تولى الخلافة أقوام لا استقلال لهم بعلم الفتاوى واتسعت الولاية فاجتاحوا الى القضاء والفقهاء المستقلين بالفتاوى والاقضية وكان قد بقي من علماء التابعين من هو على الطراز الاول في ملازمة صفو الدين فكانوا اذا طلبوا

هربوا فاضطر الخلفاء الى اكرامهم والاحاح في طلبهم فرأى أهل تلك الاعصار عز العلماء
واقبال الخلفاء والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم فاكبوا على طلب علم الفتوى توصلا الى
نيل العز والجاه وكثرت الرغبة في علم المذهب واتسع يدها العلم واكب الناس عليه ثم عرضوا
أنفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلوات منهم فثمن من حرم ومنهم
من أجمع ولم يخل المجمع عن ذل الطلب فاصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين
وبعد ان كانوا باعزة بالأعراض والهرب أذلة بالتعرض والطلب الامن وفقه الله تعالى في
كل عصر من علماء دينه فلم يخل عصر من الاعصار عن علماء بالله معرضين عن
السلطين وعن ولايتهم وأموالهم لكن كان أكثر الاقبال في ذلك العصر على علم
الفتاوى والاضية وهو الذي نسميه الآن علم المذهب ثم نبغ تابعة المتكلمين من المعتزلة
وغيرهم وظهر من الصدور والخلفاء من مال الى البحث عن العقائد والى التعصب
فيه واقبلوا على من اشتغل بذلك العلم فاكب الناس على علم الكلام واكثروا فيه
التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات والمناقضات وزعموا ان غرضهم الذب عن دين
الله تعالى والاتصال عن السنة كما زعم من قبلهم ان غرضهم الاشتغال بالفتاوى ليعتبر
الحلال عن الحرام ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في أصول
العقائد لما فيه من الفتنة فأعرض عن المتكلمين واقبل على التعصب بالمذاهب في الفروع
واقبل على من يناظر في الفقه ويأيد الاولى من مذهب أبي حنيفة والشافعي خاصة فترك
الناس الكلام واتلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة خاصة وزعموا
انهم انما يفعلون ذلك لله تعالى وغرضهم استنباط دقائق الشرع ويأيد مأخذ الاحكام
وأكثر وافيه التصانيف والاستنباط ورتبوا طرق المجادلات واعرضوا عن الخلاف
مع مالك وأحمد بن حنبل وسفيان مع انهم ايضا يخالفون من جهة الاحاديث والبحث عن
معاني الاحاديث وما يصح منها وما لا يصح في مأخذ الاحكام ولكن كانت رغبتهم
بمسب ميل الولاة والصدور اذ كان بهم التوسل الى الادرار والصلوات والولايات فلم يشتغلوا
الا بما يروج عندهم أنهم يسكتوا عن قولهم انه لا باعث لهم الا الدين واحياء الشرع ولو
مائت نوس أرباب الولايات الى الخلاف مع أحمد بن حنبل أو مع مالك لاشتغلوا
بالبحث عن مذاهبهم ومناقضاتهم ولم يسكتوا عن دعواهم انا انما نطلب مأخذ الدين لله
وفي الله فهكذا كان ترتيب الاعصار الى الآن ولا ندري ما قدره الله تعالى فيما بعد
من الاعصار فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافات والمناظرة لا غير فقل ما ترى
رجلا يتعلم الخلاف خوفا من ان يقال له يوم القيامة لم لم تتعلم الخلاف وما من أحد الا

ومخاف ان يقال له يوم القيامة لم لم تتخلص في علمك وعملك ولم راعيت الناس بطاعتك
يا فاجر يا غاوى يا فاسق يا مرأى كما ورد في الخبر ان المرأى ينادى بهذه الالقاب ومع ذلك
لا يتعلم علم الاخلاص وطريق الحذر من الرياء وما يجرى هذا الجرى من صفات القلب
فانظر الآن من يتعلم لحوف الآخرة ما أهم ما يشتغل به

بيان شروط المناظرة

اعلم ان المناظرة في أحكام الشرع من الدين أيضا ولكن لها شروط ووقت ومحل فمن
اشتغل به في وقته ومحل وقام بشرطه فقد اقتدى بالصحابة فاتهم تشاوروا في مسائل
وبالسلف الصالحين كأبي حنيفة والشافعي ومحمد بن الحسن وغيرهم فاتهم تناظروا في
مسائل وما تناظروا الله ولطلب ما هو حق عند الله ولكن لمن يتناظر لله وفي الله
علامات (الاولى) ان لا يشتغل به وهو فرض كفاية الا بعد الفراغ عن فرض العين اذ
يكون مثاله كمن يترك الصلاة المفروضة ويشغل بنسج الثياب يقول غرضي بذلك
ستر عورة من يصلي فيقال له كذبت لو أردت ذلك لصليت أولا بنفسك ثم نظرت
لصلاة غيرك (الثانية) ان لا يرى فرض كفاية آخرهم من المناظرة فان غرض المناظرة
طلب مأخذ الشرع لينال رتبة الاجتهاد وهذا من فروض الكفايات فان رأى فرض
كفاية معطلة لاقائهم بها فلا يشتغل بما قام به جماعة وعلم الاحاديث في هذا العصر من
فروض الكفايات ولا قائم به وقد أشرف على الاندراص وهو أصل الدين فمن يهمل
ذلك ويزعّم انه يتعلم الخلاف لله فهو كمن رأى جماعة من العطاش مشرفين على الهلاك
وهو قادر على ان يسقيهم بماء يحييهم به فاشتغل بتلم صناعة الحجامة وفي الحجامين كثرة
وزعم ان غرضه القيام بفرض الكفاية اذ لو خلا البلد عن الحجامين لتعرضوا للهلاك
ومن جملة فروض الكفايات التي لاقائهم بها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد يكون
المنظر في مجلس مناظرته مشاهدا للحرير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ويتناظر في
دباغ جلد الكلب والتوضي بنبذ الثمر وذكاة الحمار وذلك مما لا يتفق قط وهذه المعصية
قد اتفقت ووقعت بين يديه ولا يلتفت قلبه اليها البتة بل يجرى منه ومن غيره في مجلس
المناظرة من الغيبة والايحاش والابذاء ما يعصى به القائل والمستمع ولا يلتفت قلبه الى شيء
من ذلك ثم يزعم انه يتناظر لله فانظر هل كان مشاورة الصحابة ومناظرة السلف من
هذا الجنس فان لم يكن كذلك فلا تشبه نفسك بهم فلا تقاس الملائكة بالحدادين (الثالثة)
ان يكون المناظر مجتهدا يفتي برأيه لا بمذهب غيره حتى اذا بان له الحق على لسان خصمه

انتقل اليه كذلك كان مناظرة السلف فاما من لا يجتهد فليس له مخالفة صاحب مذهبه
فاى فائدة له في المناظرة وهو لا يقدر على تركه ان ظهر ضعفه ولو كانت مباحته
عن محل القولين والوجهين لكان أخرى وأنفع فانه ربما يفتي به ولكن يكون
ميسله الى الأصول لكثرة الكلام واتساع القول فيه حتى يجتهد في اسكاته وإخامه
وأظهار ضعف كلامه (الرابعة) ان يناظر في واقعة مهمة أوفى مسئلة قريبة من
الوقوع وان يهتم بمثل ذلك فما خاض الصحابة في المشاورة الا بعد وقوع
الواقعة ولم يخوضوا قبل الوقوع الا في الفرائض لعلمهم ان ذلك لابد من وقوعه على
القرب ولا ترى المناظر يهتم بتمييز ما تهم به البلوى كطلاق السكران وتحليل الخمر
وكون الخلع فسخاً أو طلاقاً عما لاتعم به البلوى من التوضي بنيذ التمر ودباغ جلد
الكلب وذكاة الحمار والبل ثم ربما تركت المسئلة المهمة لانها خيرية لا يطول الكلام
فيها والمهم ان يبين الحق ولا يطول الكلام فيه فكيف يختار ما يطول فيه الخصام على
ما يقصر فيه الكلام ولعله يقول غرضي الرياضة والامتحان وذلك يحصل بالمسائل
الدقيقة القياسية فينبغي ان لا يشبه نفسه بالصحابة والسلف فانهم ما ناظروا للرياضة وما
طلبوا تقوية الذهن بهذا الطريق بل بالتقوى والمجاهدة وتحصيل العلم النافع وسندكر
الرخصة فيه للرياضة ونذكر شرطه من بعد (الخامسة) ان تكون المناظرة في الحلوة
أحب اليه منها في الحافل والصدور فان الحلوة أجمع للفهم وأخرى بصفاء الذهن ودرك
الحق وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء والحرص على الاغنام ولو بالباطل
وأنت تعلم كسالمهم عن الجواب في المسئلة في الحلوة وتنافسهم في المسئلة في الحفل
واحتيالهم في الاشتهار بها عند أهل الجمع (السادسة) ان يكون في طلب الحق كمنشد
ضالة لا يفرق بين ان يظهر على يده أو على يد غيره فيرى رفيقه معينا لا خصماً ويشكره
اذا عرفه الخطاء وأظهر له الحق كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالة فذهب غيره على
ضالته في طريق آخر ليس كان يفرح به ويشكره فالحق ضالة المؤمن يطلبه كذلك
فبالله اذا ظهر الحق على لسان خصمه خجل وأسود وجهه وأربد لونه واجتهد في
مجادته ومدافعتة باقصى ما يقدر عليه وأخذ يذم من أخفه طول عمره ثم يشبه نفسه
بالصحابة وقد ردت امرأة على عمر رضي الله عنه وهو في خطبته على ملاء من الخلق
فقال صدقت أصابت امرأة وأخطأ رجل ورد آخر على علي رضي الله عنه فقال
أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم وسئل أبو موسى الاشعري رضي الله عنه
وكان أمير الكوفة عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال هو في الجنة وكان ابن

فسمود رضي الله عنه حاضراً فقال أعد على الأمير فلعله لم يفهم فاعد وأعاد الجواب
فقال ابن مسعود وأنا أقول ان أصاب الحق فقتل فهو في الجنة فقتل أبو موسى
الاشعري لا تسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم ولو أعترض الآن بمثل هذا
على أقل فقيه لانكر واستبعد وقال هذا لا يحتاج الى ذكره فانه معلوم وان لم يذكر
أومليجى هذا المجري (السابعة) ان لا يتمتع معينه عن الانتقال من دليل الى دليل ومن
سؤال الى سؤال بل يورد ما يحضره ذكره كما يحضره ويخرج من كلامه جميع دقائق
الجدل هكذا كان مناظرة أهل الدين فاما قوله هذا لا يلزمى وقد تركت كلامك
الاول وليس لك ذلك فهذا محض العناد بل الرجوع الى الحق أبداً يكون مناقضاً
للباطل ويجب قبوله وأنت ترى المناظرات في المحافل تنقضي بمحض المجادلات حتى
يقيس المستدل على أصل فيطالب بعلته فيذكرها فيطالب بالدليل على علة الاصل
فيقول هذا ما ظهر لي فان ظهر لك ما هو أولى منه فاذكره فيصير المعترض ويقول
أعرفه ولا أذكره ولا يلزمى ذكره ونقضى المجلس في الاصرار على هذا العناد
وقوله اعرفه ولا يلزمى ذكره مع سؤاله عنه كذب على الشرع فانه ان كان لا يعرف
وانما يذكره التعجيز خصمه فهو فاسق كذاب عصي الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه
معرفة هو عاقل عنها وقصده اغنام مسلم وتعجيزه واذاؤه به وان كان صادقاً فقد فسق
باخفائه ما عرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم عنه ليفهمه وينظر فيه فان كان
قوياً رجع اليه وان كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل ولا خلاف
ان اظهار ما علم من أمر الدين واجب عند السؤال ومن كتبه الجمل بلجام من نار كما
ورد في الخبر فكانه يقول لا يلزمى بيان الحق في الجدل الذي أبدعناه لسلك سبيل
الاحتياط في الاغنام والمصارعة وإلا فهو لازم في دين الله تعالى وشرع رسوله كما سبق
فانظر في مناظرات الصحابة والسلف هل سمعت مثل ذلك وهل رأيت انكاراً على
من انتقل من آية الى خبر ومن خبر الى أثر بل رأيت ذكر الله تعالى في مناظرة
ابراهيم عليه السلام حيث قال ربني الذي يحبني ويميت فقال انا أحبي وأميت قال فان الله
بأنى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فانتقل الى دليل آخر لما رأى الاول
لا يدرك فهمه (الثامنة) ان يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه ان كان يطلب الحق
والغالب انهم يجترزون من مناظرة الفحول والا كابر خوفاً من ظهور الحق على لسانهم
ويرغبون فيمن دونهم طمعاً في ترويح الباطل عليهم ووراء هذا شروط دقيقة ولكن في
هذه الشروط الثمانية ما يهديك الى من يناظر الله تعالى والى من يناظر لعله واعلم يقينا ان

من لا يظاير الشيطان وهو مستول على قلبه وقد شهد الله تعالى له بالعداوة وأنه لا يزال يدعو إلى هلاكه ثم يظاير في مسائل للمخطئ فيها أجر واحد ولا مصيب أجران فهو ضحكة للشياطين وعبرة للمخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه في ظلمات الآفات كما تعددها ونفصلها

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الاخلاق

اعلم واستيقن ان المناظرة الموضوعه لقصد الغلبة والاحكام والمباهاة والتشويق لظهار الفضل هو منبع جميع الاخلاق المذمومة عند الله تعالى المحموده عند عدوه ابليس ونسبتها الى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والرياء والحسد والمنافسة وتركية النفس وحب الجاه وغيرها نسبة الجحيم الى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل وكما ان من خير بين الشرب وبين سائر الفواحش فاختار الشرب استصغار آله فدعاه ذلك الى ارتكاب سائر الفواحش فكذلك من غلب عليه حب الانعام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك الى اضرار الجبائث كلها فنهى الحسد (قال) صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ولا ينفك المناظر من الحسد فانه تارة تغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وتارة يحمد كلام غيره وما بقي في الدنيا من يعتقده انه أقوى على الحصوص منه فلا بد وان يحسده ويحب زوال النعمة عنه ويغير الاعتقادات فيه ويكون يحسده في الحال في عذاب دائم ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول العلماء بعضهم في بعض فانهم يتفايرون كما يتفاير التيوس في الزريبة ومنها التكبر والترفع على الناس (قال) صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر (وقال) صلى الله عليه وسلم من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله (وقال) حاكيا عن الله تعالى العظيمة ازارى والكبرياء رداى فمن نازعنى فيها قصمته وتحرك بالمناظرة داعية الكبر والترفع على الاقران في المجالس والتقدم في الطرق حتى انهم ليتقاتلون على القرب من الصدور وربما يعبر المغرور عن التواضع بالذل ويقول لست أرفع نفسى الا لاعزاز العلم وصونه عن الذل وليس يدري ان الذل في التواضع للاغنياء وللصدور من أهل الدنيا لا للافقران فيسمى التواضع المحمود عند الله تعالى ذلاً والتكبر الممقوت عنده عزاً محرماً لا لاسم واذلاً عن الحق ومنها الحق (قال) صلى الله عليه وسلم المؤمن غير حقود ولا يخلو المناظر عن حقد على من يحرك الرأس في كلام خصمه ويرجحه عليه ومتى يتفق

جميع المستمعين على ترجيح كلامه فلا يخلو عن يستحسن كلام خصمه ويستترك كلامه أما بقباله أو بصريح كلامه ثم ان جرى من خصمه أو من واحد منه ما فيه قلة مبالاة به وبكلامه انفس في نفسه حقد لا يقطعه أبد الدهر الى آخر العمر أصلاً ومنها الغيبة وقد شبهها الله تعالى بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فانه لا يخلو عن حكاية كلام خصمه في معرض التمجيز والذم والتوهين له وربما يحرف كلامه فيكون كاذباً ملبساً وغاية احتياطه ان يصون لسانه عن التحريف والزيادة والتقصان وهيات فيحكي كلامه لامحالة على وجه يدل على عجزه وقصوره وتقصان فضله وبلادته وجهه وقد يصرح باستجهاله واستحقاقه واستحقاق من حركه رأسه ومال اليه والغيبة أشد من الزنا كما ورد في الخبر ولا يمكنه الاحتراز عنها ومنها تركية النفس قال الله تعالى (فلا تركوا أنفسكم) ولا يخلو المناظر من التناء على نفسه أمتصريحاً وأما تعريضه بفضله فضل غيره وتهجين كلام غيره والغالب انه يصرح ويقول لست بمنخني عليه أمثال هذا وأنا المتفني في العلوم والمستقل بالاصول والفروع وما يجري مجراء قارة للحاجة الى ترويج كلامه واسمالة القلوب اليه وتارة على سبيل الصلف والبدخ وهو مذموم شرعاً وعقلاً ومنها التجسس وتتبع العورات قال الله تعالى (ولا تجسسوا) وقال صلى الله عليه وسلم يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لاتبعوا عورات المسلمين فمن تتبع عورة مسلم تتبع الله تعالى عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته ولا يخلو المناظر عن طلب عثرات الاقران والحصوص ليدخره ذخيرة لنفسه ليتمكن من إفصاحه في مناظرته وتحجيلة حتى انه ليتقحص عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه عساه ان يعثر على هفوة أو على قرع أو عيب يحبه به ثم اذا نادى به أما ان يشافه به وأما ان يعرض به ان كان متماسكاً ثم يبتجج به ويقول كيف اخجلته به وكيف أخزيت ويستحسن ذلك ويعد من لطائف التشبيه وربما لا يتبع من الافصاح بالافصاح كما يحكى عن جماعة من السفهاء يعدون من أكابر المناظرين وما أبعد هذا من سيرة أهل الدين ومنها الفرح بمساءة الناس والغم بسرورهم ومن لا يحب لآخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو ناقص الايمان بعيد عن أخلاق أهل الدين وكل من غلب عليه الخاتم الاقران بالمناظرة يسر ما يسوءهم من نقصان المال والجاه ويسوء ما يسرهم من ارتفاع القدر وانتظام الامر ويكون التباغض فيما بينهم كما بين الضرات يرى أحدهم صاحبه من بعد فتر تعد فرائضه ويرد لونه كأنه يرى شيطاناً وأهل الدين يتباشرون بالتلاقي ويستروحون اليه ويستأنسون بالملالة مع الاخوان ويتفرجون به عن الهموم ويتساهمون في السراء

والضراء ويتعاونون في البؤس والرخاء قال الشافعي العلم بين أهل العلم رحم متصل
فأي خير لك في علم يدعوك إلى العداوة والشحناء مع الأخوان والشركاء في العلم ويصرفك
عن أخلاق المؤمنين في التواضع والتحابب إلى أخلاق المنافقين في التعادى والتباغض فقد
كان يجرى بين الشافعي وأحمد بن حنبل مفاوضات في علم الحديث وغيره ثم كان يقول
أحمد ما صليت منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي ومنها التفاف ولا خفاء بكونه
مذمو ما وهم مضطرون إليه فانهم يلقون الخصوم والأقران والاتباع بوجه مسالم وقلب
منازع وربما يظهرون الشوق المفرط إلى لقاءهم وفرائضهم مرتعدة في الحال من بعضهم
ويعلم كل واحد من صاحبه أنه كاذب فيما يديه وأنه مضمر خلاف ما يظهره (قال صلى
الله عليه وسلم إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا باللسن وتباغضوا بالقلوب
وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فاصمهم وأعمى أبصارهم رواء الحسن وقد
صح ذلك ودل عليه المشاهدة والبيان ومنها الاستكبار عن الحق وكرهته والحرص
على مدافعة بالمعارة فيه حتى أن أنقض شئ إلى المناظر أن يظهر الحق على لسان
خصمه ومهما ظهر شعر لجده بما بقدر عليه من التلبس والمخادعة والمكر والحيلة ثم
تصير المعارة له عادة وطبيعة حتى لا يسمع كلاما إلا وتبعث داعيته للاعتراض عليه
أظهارا للفصل واستحماقا للخصم فان كان محقا فقد لا يكون قصده اظهار الحق بل اظهار
نفسه وتقيص غيره وقد قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى له بيت
في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في رطب الجنة وقد سوي
الله تعالى بين من كذبه وبين من كذب بالحق فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا
أو كذب بالحق لما جاءه) ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم والرياء هو
الداء المضال كما بينا في كتاب الرياء فهذه عشرة خصال من أمهات الفواحش الباطنة
سوى ما يتفق لغير المتماكين منهم من الخصام المؤدى إلى الشتم والضرب والأخذ باللعن
وسب الاستاذين والوالدين فان أولئك ليسوا معدودين في زمرة المعتبرين وأما العقلاء
والأكابر منهم لا ينفكون عن هذه الخصال العشرة وعن بعضها سلم بعضهم عن بعضها ثم
يتشعب عن هذه الخصال العشرة عن كل واحدة عشرة أخرى من الرذائل لم نطول
بذكرها وتفصيل أحاديثها مثل الغضب والانفة والبغضاء والطمع وحب المال والحلم لا يمكن
من الغلبة والمباهاة والاشتر والبطر وتعظيم الاغنياء والسلطين والتردد اليهم والاخذ من
حرامهم واستحقاق الناس بالفخر والحياء ومغايرة الأقران بالتجمل والخيول ومراكب
الذهب والملابس المحظورة والحوض فيما لا يعنى وكثرة الكلام وخروج الخشية من القلب

واستيلاء الغفلة حتى لا يدري المصلى منهم في صلاته ما يقرب ولا يحس بالخشوع من
قلبه واستغراق العمر في العلوم التي لا تنفع لتعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة حتى
تحسب العبارة وتسجيل الألفاظ وحفظ النوادر واعلم ان هذه الرذائل لازمة لبلوغ اعراضا
كان قصده بالوعظ طلب القبول والجاه ونيل الثروة والغز بل لازمة للمشتغل بعلم
المذهب والتفسير اذا كان قصده الدنيا وطلب القضاء والاقواف والتقدم على الأقران
وبالحيلة فهي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير وجهه الله تعالى فالعلم لا يهمل صاحبه بل يهلكه
ويشقيه أو يسعده ويقربه من الله تعالى ويدنيه فطالبه كطالب الملك لا يخلو عن الملك
أو أهلك ولا تسلم له سلامة الا راذل فان قنت في المناظرة فائدتان أحدهما ترغيب
الناس في العلم اذ لو لأحب الرياسة لا تدرست العلوم وفي سدا بها ما يغري هذه الرغبة والأخرى
ان فيه تشجيد الخاطر وتقوية النفس لدرك ما أخذ الشرع فقول صدقت ولم تذكر
ما ذكرناه لسد باب المناظرة بل ذكرناها ثمانية شروط وعشرة آفات ليراعى المناظر
شروطها ويحترز عن آفاتها ثم يستدر فوائدها من الرغبة في العلم وتشجيد الخاطر فان
غرضك ان تقول ينبغي ان يرخص في هذه الآفات ويحتمل جميعا لأجل الرغبة في
العلم ولأجل تشجيد الخاطر فبئس ما حكمت فان الله تعالى رغب الخلق في العلم بما
وعدهم من ثواب الآخرة لأب الرياسة (وقال عليه الصلاة والسلام ان الملائكة تبسط أجنتها
لطالب العلم وتشفع العلماء يوم القيامة ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا
إلى الجنة الى غير ذلك مما روينا من اخبار فضيلة العلم والترغيب فيه ومتى رأيت يقول
من طلب العلم وحصله تقدم على أقرانه وترفع عليهم وأخذ اذرار السلطان وسلمت له
الرياسة وولاية القضاء والاقواف فيحرص في الترغيب في العلم بأكثر من حرص الانبياء
والرسل وقد زجروا عن طلب العلم للدنيا وقالوا من تعلم العلم للمباهاة واستمالة وجوه
الناس فالنار النار فاياك ان تكون أعظم شفقة على الشرع من واضع الشرع نعم حب
الرياسة باعث طبعي والشيطان موكل بحريكه والترغيب به وهو مستغن عن نيابتك
ومعاوتك فلا تكن نائباً للشيطان واعلم ان من تحركت رغبته بحريك الشيطان فهو ممن
(قال) فيهم صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وباقوام لا خلاق لهم
ومن تحرك بحريك الانبياء وترغيبهم في ثواب الله تعالى فيكون من ورثة الانبياء وخلفاء
الرسل وأمناء الله تعالى على عبادته وأما حديث تشجيد الخاطر فقد صدقت فليشجذ
الخاطر وليجتنب هذه الآفات التي ذكرناها فان كان لا يقدر على ان يحترز منها
فليكتب بخاطر كخاطر الصحابة والتابعين فان كان يريد الخاطر ليعلم الدين والشرع

فقد شجذت خواطر أهل الدين بالمواظبة على العلم وطول التفكير فيه وتصفية القلوب
عن كدورات الاخلاق فان الشيء اذا كانت له منفعة واحدة وآفات كثيرة فلا يجوز التعرض
لآفاته لتلك المنفعة الواحدة يدل عليه الحزم والميسر فقد قال تعالى (وايهما أكبر من نعمهما)
ولاشك في منفعة الحزم في تعديل المزاج وتقوية الطبع وتقوية الدماغ والميسر في تشجيع الحاضر
بل الرياضة بالعب بالشرط نخرج بهذا الحاضر فلا يجوز الاشتغال به والتعرض لآفاته وكذلك
النظر في علم اقليدس والمجسطى ودقائق الحساب والهندسة والرياضة بها تشجذ الحاضر
وتقوى النفس ونحن نمنع منها لآفة واحدة وهي انها من مقدمات علم الاوائل ولهم
مذاهب فاسدة وراءها وان لم يكن في نفس علم الهندسة والحساب مذهب فاسد متعلق
بالدين ولكن تخاف منه الانجرار اليه وعلى الجملة لا نمنع من المناظرة لمن قدر على القيام
بالشرط الثمانية والحذر من آفاته العشرة ولا رخصة فيها لمن لم يقدر عليه هذا هو الحق
فان اهتمت من يزجر عن هذا بان الناس أعداء ما جهلوا فلا تهم به هذا القائل فعلى
الحير سقطت فيه والله أعلم

الباب السادس في آداب المعلم والمتعلم

اما المتعلم فآدابه كثيرة وقد أطنب العلماء فيه واكثروا ولكن ينظم تناريها ست جمل
(الوظيفة الاولى) تقديم طهارة نفس القلب عن رذائل الاخلاق وخبائث الصفات اذ
العلم عبادة القلب وصلاة السر وقرية الباطن الى الله تعالى وكما لاتصح الصلاة التي هي
وظيفة الجوارح الا بتطهير الظاهر من الاحداث والابخاث فكذلك لاتصح عبادة
القلب بتعلم العلم الا بعد طهارته من خبائث الاخلاق ونجاسات الصفات وليست التجاسة
مقصودة على الظاهر قال تعالى (انما المشركون نجس) تنهياً للعقول على ان طهارة البدن
والثوب غير كاف في حصول الطهارة والتجاسة عبارة عما يجنب فاذا كان القلب ملطخا
بصفة يجب اجتنابها فهو نجس بل هذه أعظم فاتها في الحال نجاسات وفي المال مهلكات
وقد دل على اشتراط هذه الطهارة للعلم (قوله) صلى الله عليه وسلم لا تدخل الملائكة بيتاً
فيه كلب والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط آناهم والصفات الرديئة مثل الغضب
والشهوة والكبر والعجب واخوانها كلاب ضارية نابجة ونور العلم انما يقذفه الله تعالى
فيه بواسطة الملائكة قال الله تعالى (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء
حجاب او يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) فهكذا يرسل من رحمة العلوم الى القلوب
انما يتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن المذمومات

فلا يلاحظون الا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خرائر رحمة الله الا طاهراً. ولست
أقول المراد باليت هو القلب وبالكلب الغضب بل هذا الظاهر كما ورد مقبول ولكننا
نعب من الظاهر الى الباطن ومن الصورة الى السر والمعنى وهذا طريق الاعتبار الذي
أمر الله تعالى به فقال (فاعتبروا بأولى الابصار) أى اذا علمت هذا الظاهر وطهرت البيت
عن الكلب فاعبر من البيت الذي هو بناء الخلق الى البيت الذي هو بناء الخالق وهو
القلب ومن الكلب الذي ذم لصفته لا لصورته بل لمسا فيه من

وهي الضراوة والسبعية واعلم ان القلب المشحون بالغضب والشره والتكالب على الدنيا
والحرص على تزريق اعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة وصاحب نور البصيرة
يلاحظ المعاني ولا يقتصر على الصورة والصور في هذا العلم غالبية على المعاني والمعاني
باطنة حتى قدر ترى ذنباً في صورة انسان وفي عالم الآخرة تتبع الصور المعاني فيحشر
كل شخص على صورة تناسب معناه الباطن فيحشر الممزق لا عراض الناس كلباً ضاراً
والشره الى أموالهم ذنباً عادياً والمتكبر عليهم في صورة نمر وطالب الرياسة والاستيلاء في
صورة أسد وقد وردت به الاخبار وشهدت له شواهد الرؤيا فان التائب لما بعد عن عالم
المحسوسات وقرب من ذلك العالم اذ التوم أخو الموت فيرى في النوم الموصوفين بهذه
الصفات على هذه الصور التي ذكرناها فان قلت كم من طالب علم ردىء الاخلاق
حصل العلوم وصار اماماً فيها فكيف تكون هذه الطهارة شرطاً فأقول هيئات ما بعدك عن
العلم الحقيقي النافع في الآخرة فان أول العلم ان تعرف ان للمعاصي سبب مهلكة
ومن تناول السم وزعم انه علم انه سم فقد كذب انما الذي تسمعه من المبرسمين
حديث تلقفوه بأساعهم وأدوه بالسنتهم فما استضاءت قلوبهم بنور العلم أصلاً قال ابن
مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية انما العلم نور يقذف في القلب وقال
بعضهم انما العلم الخشية اذ قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فاعلم مقدار علمه
بمقدار خشيته (الوظيفة الثانية) ان يقلل علاقته من اشتغال الدنيا ويبعد عن الاهل
والوطن، فان العالاق شاغلة وما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه ومهما توزعت
الفكرة قصرت عن درك كنه الحقائق ومثاله كيجدول يفرق ماؤه في جداول
فتشتت الارض بعضه واختطف الهواء بعضه فلم يبق منه ما يجمع ويبلغ المزرعة
وكذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيتك كلك فانت من إعطائه
أياك بعضه على مخطر (الوظيفة الثالثة) ان لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على أهله بل يلقى

الى العلم زمام أمره في كل تفصيل ويدعن لتصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق فاذا أشار معلمه عليه بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فان خطأ مرشده أفع له من صوابه اذ التجربة قد تطلع على دقائق يستعدها طباع المبتدئين مع انه يعظم نفعها فكم من مريض محروور يالج له الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته الى حد يحتمل العلاج فيتمتع منه من لاخذق له في الطب وقد نبه الله تعالى في قصة الخضر وموسى عليهما السلام على ذلك اذ قال له (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيرا) فالترزم الصبر ثم لم يقدر عليه وكان سبب الفراق بينهما فكل متعلم ينتقى لنفسه رأيا واختيارا فاحكم عليه بالاخلاق والحسran في مخالفة تدبير المعلم غاية التكبر عليه بل ينبغي ان يكون المتعلم للمعلم كارض دمثه ثالث مطرا غزيرا فنسرت بجميع أجزائها فقد (قال) صلى الله عليه وسلم ليس من أخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم ومن تكبره ان يستكف من الاستفادة الامن المشهورين المرموقين وهو عين الحماقة لان العلم سبب النجاة ومن طلب مهربا من سبع لايفرق بين من يرشده الى المهرب أهو مشهور أو خامل فالحكمة ضالة المؤمن يفتتها حيث نظرها ويشكر من أرشده اليها كاثما من كان ولذلك قيل العلم حرب للمعالي كالسيل حرب للمكان العالي فلا ينال العلم الا بالتواضع والتسليم وإلقاء السمع قال الله تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وذو القلب هو الناظر بنفسه وملتقى السمع هو المصغى الخضر قلبه للقبول والتقليد وينبغي ان يتشرف بخدمة معلمه وان كان أعلى منه نسباً وارفح جاهها قال الشعبي صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت له بغلته ليركبها فاخذ ابن عباس بركابه فقال زيد خل يا ابن عم رسول الله فقال ابن عباس هكذا أمرنا ان نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد يده وقال هكذا أمرنا ان نفعل باهل بيت نبينا محمد عليه الصلاة والسلام (الوظيفة الرابعة) ان العمر اذا كان لايتسع لجميع العلوم فالخزم ان يأخذ من كل شئ أحسنه ويقنع منه بشمة ويصرف زمام قوته الى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعنى قسمي المعاملة والمكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ولست أعنى به الاعتقاد الذي تلقنه العاقل ورأته وتلقها ولا طريق تحرير المجاذلات وتحصين ذلك عن مراوغات الخصوم وتلبسات المتدعة كما هو غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين وهو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبده طهر باطنه بالمجاهدة عن الخباثت ينتهي الى رتبة إيمان أبى بكر الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح والى السر الذي به فضلي أبو بكر سائر الصحابة رضي الله عنهم والى العلم الذي مات تسعة

اعشاره بموت عمر رضي الله عنه كما قال ابن مسعود ولم يمكن منتهى عقيدة العاقل ولا أدلة مجادلة المتكلمين مختصا بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما والعجب ممن يسمع مثل هذه الاحوال من صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ثم اذا سمع مثله وعلى وفقه قال ذلك من تراهاات الصوفية والكلمات الفارغة فينبغي ان يبحث عن ذلك السروع عن ذلك العلم الخاص ويحرص عليه (الوظيفة الخامسة) ان يعرف السبب الذي به يدرك شرف العلوم وان ذلك يراد به إما شرف الثمرة واما ثقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الابدية وثمره الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف وأهم ومثل علم الحساب وعلم النحو فان الحساب أشرف لوناة براهينه وأدلتها واذا اضيف الحساب الى الطب فالتب أشرف باعتبار ثمرة والحساب أشرف باعتبار براهينه وقوة أدلتها واذا قوبل بينهما كان ملاحظة الثمرة أولى لان الدليل لا يراى لعينه بل لاجل الثمرة والفائدة فلذلك كان الطب أهم وأشرف وان كان أكثره بالتخمين وهذا يتبين ان أشرف العلوم العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم فبالك ان ترغب الا فيه وان تخلص الا عليه (الوظيفة السادسة) ان يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه بنعوت الكمال وفي المال التقرب الى حضرة الجلال والترقى الى جوار الملأ الاعلى من الملائكة والمقرين ولا يقصد به الرياسة والمباهاة والتقدم على الاقران كما سبق واذا كان هذا مقصده طلب لاجالة ماهو الاقرب الى مقصوده وهو علم الآخرة ومع هذا فلا ينبغي ان ينظر بعين الحفاة الى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى والافضية بل ولا الى علم النحو واللغة المتعلقين بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتممات ولا يفهم من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم حاشا لله ان يكون كذلك فالتكفلون بعلوم الدين كالتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة كلهم مجاهدون في سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء والعون قال الله تعالى خبراً عن موسى عليه السلام (فارسه معي رداً يصدقني) ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يتعهد الدواب ويحفظها على اختلاف مراتبهم لايفك واحد منهم من الأجر اذا قصد إعلاء كلمة الله دون جيازة النعمة فكذلك العلماء قال الله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال تعالى (هم درجات عند الله) فالفضيلة نسبية واستحقاقها الصياغة بالاضافة الى الملوك لايدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين والدياغين ولا تظن ان من نزل عن المرتبة العالية فهو ساقط القدر بل الرتبة العليا للانبياء ثم الاولياء ثم العلماء الراسخين

ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة (فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه به ورفعته

القول في وظائف العلم وآدابه

اعلم ان للإنسان في علمه أربع أحوال كحاله في اقتناء الاموال اذ لصاحب المال حال الاستفادة فيكون مكتسباً وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال وحال انفاق على نفسه فيكون به منتقماً وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله فكذلك العلم يقتضى كمالاً فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغنى عن السؤال وحال استبصار وهو حال التفكير في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الاحوال فن علم وعمل وعلم فهو كالشمس تضيئ لغيرها وهي مضيئة وكالمسك الذى يطيب وهو طيب والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم والمسنن الذى يشهد غيره وهو لا يقطع ولا يبره التى تكسو غيرها وهي عارية وكذبالة المصاح تضيئ لغيرها وهي تحترق ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد خطر أعظماً فليحفظ آدابه ووظائفه وهي سبع (الوظيفة الاولى) الشفقة على المتعلمين وان يجربهم بحرى البنين (قال) النبي صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم مثل الوالد لولد فان قصده انقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من انقاذ الابوين ولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالد بن فان الوالد سبب الوجود والحاصل والحياة القانية ولولا المعلم لساق ما حصل من جهة الاب الى الهلاك الدائم وانما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية الدائمة أعنى معلم علوم الآخرة وعلوم مصالح الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك لعمود بالله تعالى منه فكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتجاوبوا ويتعاونوا على المقاصد حتى تلامذة الرجل الواحد التحاب ولا يكون الا كذلك ان كان مقصودهم الآخرة ولا يكون الا التحاسد والتباغض ان كان مقصودهم الدنيا فان العلماء وابناء الآخرة مسافرون الى الله تعالى وسالكون اليه في الطريق والدنيا هي الطريق وسنونها وشهورها منازل الطريق والترافق في الطريق بين المسافرين الى الامصار سبب التوادد والتحاب فكيف والسفر الى الفردوس الاعلى والاضيق في سعادات الآخرة ولذلك لا يكون بين ابناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ولذلك لا تنفك عن ضيق التزاحم والعداؤون الى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) داخلون في مقتضى قوله تعالى (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) (الوظيفة الثانية) ان يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فلا يطلب على افاضة العلم أجراً

ولا يقصد جزاء ولا شكورا بل يعلم للتقرب الى الله تعالى كما قال الله تعالى (قل) لأستلکم عليه أجراً ولا يمين أيضاً على تلامذته وان كانت المنفعة لازمة له عليهم لكن المتعلم يتقصد المنفعة ويلتزم الحق أكثر مما يلتزمه لايوبه والمعلم لا يمين بل يشكر الله تعالى اذ هدف قلوبهم لتعليمه ولزراعة العلم فيه حتى يتوصل بواسطتهم الى ثواب الآخرة فاما اذا اعتاض عن التعليم خدمة أو موالاة أو دنيا فقد احبط عمله فان المال وما في الدنيا خادم للبدن اذ لاجله خلق والبدن خادم القلب والقلب يراى للعلم اذ به شرفه فن طلب بالعلم المال فقد طلب الاخس بالاشرف وكان كمن مسح أسفل نعليه بمحاسنه لينظفه وما اشد انتكاس من جعل الخادم مخدوماً والمخدوم خادماً هذا ينبغي ان يكون مقصد المعلم واذا ارد الامر الى التحقيق فالتنة للاستاذ على التلامذة واذا فسدت التينات وطلب بالعلم الحياء انكس الأمر واصبح التلميذ يمين على استاذته بتكثير سواده والجلوس بين يديه لاقامة جاهه فلا جرم يتحكم عليه بطلب الجراية ويطوقه خدمة السلطان لاطلاق جرياته وبكلفة القيام بجميع حقوقه والتصدى لدفع الآفات عنه بنصرة أوليائه ومعاداة أعدائه ويطمع في ان يستسخره في جميع أغراضه ويتخذ حماره له في حاجاته والمعلم المسكين يتكفف جميع ذلك ويلتزمه خيفة من ان يتلتم حاهه بأغراضه ويتفرق اتباعه وكل ذلك عكس للواجب بل اليد العليا للمعلم والخدمة واجبة له على المتعلم وان كان حقه ان لا يقصد ذلك بتعليمه (الوظيفة الثالثة) ان لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً وذلك بان يمنعه من التصدى لترتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم حتى قبل الفراغ من الحلى ثم يشبهه على ان المطلب من العلم القرب من الله تعالى فلا ينبغي ان يقصد سواه فان علم انه يقصد بتعليمه الدنيا فانظر فان كان يتعلم العلم النافع المنذر الخوف المستفاد من التفسير والاخبار فلا يمنعه منه فانه اما ان يصلح ذلك العلم ويرده الى الله تعالى أو يشمر للوعظ والانذار طلباً للجهاد والقبول فيصلح به جمع من الناس وان هلك في نفسه وكان حب القبول والجهاد كالحب في الفخ يقتض به الطير وقد فعل الله تعالى ذلك بعباده اذ خلق الشهوة ليتسارع الخلق بها الى أسباب النسل وخلق أيضاً حب الرياسة ليكون سبباً لاجلاء العلوم فلو لاجب الرياسة لاتدرست العلوم ولله تعالى تحت كل شرس وفي طيه خير يتصل به يفعل عنه ولاجله قدر الخير والشر جميعاً فاما ان كان يطلب الخلاف والجدال أو مجرد التفريعات الغريبة فلا يزداد المتجرد لها مع الاعراض عن غشيرها الاقوسة في القلب وغفلة عن الله تعالى وجرأة على الدنيا وتماذيا في الحرص الا من تداركه الله برحمته ومنهج به علما آخر من العلوم النافعة المنذرة ولا يرهان على هذا كالتجربة والمشااهدة

فان قلت على الجملة يحصل به احياء علم لا بد من احيائه فقد صدقت فهذا خير ولكن اذا كان هذا الاحياء حاصلًا بغيره فما يفسده هذا من تحريك رغبة الدنيا في الجهال أكثر مما يصلحه من الفتاوى التي لا يجوز الثقة بها هذا لا يجوز قبول الفتوى الا من عدل ورع ومن لا يخاف الله تعالى لا يؤمن غوائله ولا يوثق بقوله ففساد مثل هذا العالم أكثر من اصلاحه ولذلك روى سفيان الثوري حزيناً فقيل له مالك فقال صرنا متجراً لاهل الدنيا بلزنا أحدهم حتى اذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهراً ما (الوظيفة الرابعة) ان يزجره عن سوء الاخلاق بالتعريض لا بصرح النهي وبطريق اللطف والتصح لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهية وربما يحصر الطبع على ما نهى عنه صريحاً (قال) صلى الله عليه وسلم لومع الناس من فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شيء وينهك على هذا ما حكى لك من قصة آدم وحواء ونهيهما عن أكل الشجرة واذا نهى بالتعريض تشوقت النفوس الزكية الى التفتن للمعنى والمزاد وتشوقت الى العمل به ليعلم ان ذلك ليس يعزب عن فطنته (الوظيفة الخامسة) ان المتكفل ببعض العلوم لا ينبغي ان يقبح في عين المتعلم ما عداه فالعالم بالفقه يزجر عن علم الحديث ويقول محض النقل والتقليد وليس فيه تحقيق وكالتكم يزجر عن الفقه ويقول ذلك ظن وتخمين لا برهان فيه وهذا كلام في حيز النساء فان هو من الكلام في صفات الرحمن وهذه اخلاق مذمومة بل ينبغي ان يوسع على المتعلمين طرق العلوم لكن ينهم على الاهم فالاهم والاشرف فالاشرف وعلى رعاية التدريج والترتيب فيه (الوظيفة السادسة) ان لا يلقى الى المتعلم مالا يحتمله فهمه فينفره أو يخط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد المرسلين حيث (قال) انا معاشر الانبياء امرنا ان نزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم (وقال) عليه الصلاة والسلام ما أحدث يحدث الناس بحديث لا يبلغه فهمهم الا كان فئة على بعضهم وقال على رضى الله عنه وأشار الى صدره ما هاهنا علوماً جمة لو وجدت لها حيلة ولقد صدق قلوب الاحرار قبور الاسرار بل لا ينبغي ان يث كل ما يعمله الى من يفهمه أيضاً اذا كان لا يتفهم به فضلاً عن يفهمه قال عيسى عليه السلام لا تعلقوا الجوهر في أعناق الخنازير والحكمة خير من الجوهر فمن كرهها فهو شر من الخنزير وسئل بعض الحكماء عن شيء فلم يجيب فقال السائل أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول) من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجماً من نار فقال اترك العجام واذهب فان جاء من يفهمه فكتمته فليجنى وقال تعالى (ولا توتوا السفهاء أموالكم) تنبها على ان حفظ العلم عن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في

إعطاء غير المستحق باقل من الظلم في منع المستحق

فمن منح الجاهل علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) ان يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله بفعله لان العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالبصائر وأرباب الابصار أكثر من أرباب البصائر والارشاد مع مخالفة العمل القول بل من زجر الناس عن تناول طعام وزعم ان فيه سماً وهو يتناوله سخروا منه ولم يصدقوه وازداد حرصهم عليه وقالوا انه يصطفيه ويحل به علينا ونفاسه يزجرنا عنه وقد قيل مثل المعلم المرشد من المسترشد مثل النقش من الطين والعود من الظل وكيف ينتقش الطين بما لا تنقش منه فيه

وكيف استواء الظل والعود أعوج

وقال تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأتم تنلون الكتاب) وقال على رضى الله عنه قصم ظهري رجلاً ن غلم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بهتكه فهذه وظائف المعلم معما ذكرناه من علامات علماء الآخرة

الباب السابع فيما يحل للعلماء أخذه من أموال

السلطين وغيرهم وفيه فصول

الفصل الاول في فضل الورع قال الله تعالى (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) فامر باكل الحلال وقدمه على العمل الصالح (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه طلب الحلال فريضة على كل مسلم كما قال طلب العلم فريضة كل مسلم وقال بعض العلماء أراد بهذا أيضاً طلب علم الحلال فجعل الحديثين حديثاً واحداً وعلى كل حال فطلب الحلال من أهم فرائض الدين فالعلم والعبادة مع الحرام كالبناء على السرحين وقد (قال) صلى الله عليه وسلم من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله تعالى قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وفي رواية زهده الله تعالى في الدنيا وروى ان سعداً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يسأل الله تعالى له ان يجعله محاب الدعوة (فقال) أطلب مطعمك تستجيب دعوتك (وقال) صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر مشرد في الاسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يرفع يديه فيقول يارب يارب فاني يستجاب لذلك وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه (قال) ان لله تعالى ملكاً على بيت المقدس ينادى كل يوم من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل فقبل الصبر والتأفلة والعدل الفريضة (وقال) صلى الله عليه وسلم من اشترى ثوباً بعشرة

دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شيء (وقال) صلى الله عليه وسلم كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به (وقال) صلى الله عليه وسلم من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله تعالى من أين يدخله النار (وقال) صلى الله عليه وسلم العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال وقد روي في كتاب الكسب والتجارة وكتاب الحلال والحرام أخباراً وأثاراً كثيرة تدل على تشديد الأمر في طلب الحلال ولا حل ذلك انتهى الأمر بالصديق رضي الله عنه إلى أن أدخل أصبعه في الحلال ولا حل ذلك انتهى الأمر بالصديق رضي الله عنه إلى أن أدخل أصبعه في فيه وتقياً حتى كاد تخرج روحه لما سمع أنه كان فيها شربة من اللبن شبهة وهو أن غلامه كان قد تكهن القوم فاعطوه ذلك ثم قال اللهم اني اعتذر اليك مما حملت العروق وخالط الامعاء وكذلك غلط عمر رضي الله عنه فشرب من ابل الصدقة فادخل أصبعه وتقياً ولم يتركه في جوفه مع أنه كان معذوراً بالغلط وقالت عائشة رضي الله عنها انكم لتعملون عن أفضل العبادات وهو الورع فاذا أهم مهمات العالم الورع والنظر في مطعمه وملبسه من أين هو فان لم يدبر له وتساهل فيه لم ينتفع بعلمه ولم ينتفع غيره به فاصل الدين الورع

الفصل الثاني في درجات الورع

وهي أربع (الدرجة الاولى) ورع المدول عن المعاصي وهو الذي يفتق المفتى بتحريمه كإتباعه والمعاملات الفاسدة وخراج السلطان ومال الاوقاف على خلاف شرط الواقف وهو الذي يلزم المعصية والفسق بسببه (الدرجة الثانية) ورع الصالحين وهو الحذر من الشبهات (قال) صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك وهو الذي يستحب اجتنابه ولا يجب في قوى المفتى والفقهاء (الدرجة الثالثة) ورع المتقين وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس (قال) صلى الله عليه وسلم لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس وقال عمر رضي الله عنه كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام فن هذا القليل الاحتراز مما يسامح به خيفة من الانجرار الى ما لا يسامح به كما حكى عن بعضهم أنه كان يعطى ما عليه زيادة حبة ويأخذ مما له نقصان حبة ويجعل الحبة حازجة بينه وبين النار وعن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة الوقوع في الحرام وعندى أن الحلال الذي يخشى منه الوقوع في الحرام محصر في ثلاثة أقسام إليها يرجع تسعة أعشار الحلال وسبعون باباً من الحلال كما نقل (القسم الاول) ما يفتى به الفقيه بأحتمل قلبه وتسامح الناس به وذلك مما ينبغي أن يتوقى وأن لم يكن به بأس مخافة ما به بأس اذ يخبر ذلك قليلاً

قليل الى الاسترسال والاصل في هذا انتهى ما روى ان الحسن رضي الله عنه أخذ قمرة من الصدقة ووضعها في فيه (فقال) صلى الله عليه وسلم كبح كبح القها ولم يسمح له بذلك مع كونه نزرًا قليلاً ومع كون المتناول صيباً ولكن أراد أن يكون نشوة على درجة التقوى فكذلك اقتدى به عمر رضي الله عنه اذ باعت امرأته طيباً للمسلمين فوزنت ومسحت يدها بخمارها فشم عمر رضي الله عنه رائحة المسك من خمارها فقال ما هذا فاخبرته فقال طيب المسلمين تأخذينه فاخذ خمارها وأخذ جرة من ماء وكان يصب على الخمار ويدلكه بالتراب ويشمه فلا يزال يفعل ذلك حتى لم يبق له رائحة فكانت بعد ذلك اذا وزنت طيباً أدخلت أصبعها في فيها ثم مسحت في التراب وتابعه على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله فحمل اليه وهو في المسجد طيب للمسلمين فاخذ بآفته وقال هل ينتفع الا برائحته وسئل أحمد بن حنبل عن رجل قاعد في المسجد فحملت حجره لبض السلاطين ويحرج بالعود فقال ينبغي أن يخرج من المسجد وسئل عن ورقة من الاحاديث يحدها فيكتبها قبل الاستئذان ثم يردّها قنبي عنه وحضر بعضهم وفاة رجل فلما توفي اطفأ السراج وقال حدث للورثة حق وقال علي بن معبد كنت ساكناً في بيت بكراء فكثبت كتاباً فاردت أن أخذ من تراب الحائط لآثر به به وأجفئه ثم قلت ليس الحائط لي ثم قالت لي نفسي وما قدر تراب من حائط فاخذت التراب فلما تمت اذا أنا بشيخ واقف يقول سيعلم غداً الذين يقولون وما قدر تراب من حائط معناه أنه يرى كيف يحط منزله عن مقامات المتقين واحتراز بعضهم عن أن يحكم شيع نعله في مشعلة سلطان وكره بعضهم سراجاً أخذه غلامه من نار من يكره ماله فاطفأه (القسم الثاني) من الحلال الذي يقتضى التقوى تركه وهو التوسع في التمتع وأكل الشهوة وتناول اللذات من المباحات والاحتراز من الزينة والتجمل في المسكن والملبس والاثاث فان جميع ذلك وان كان مباحاً لا بأس به ولكن يخاف منه ما به بأس أما ملاذ الاطعمة فتحرك دواعي الشهوة والشهوة اذا هاجت ربما لم يقتصر الفكر والنظر على المباحة فلا يقدر على حفظ الفكر والنظر وان قدر على حفظ الفرج والتجمل اذا كثرت لم يمكنه الصبر عنه ولا يمكنه استدامته الا بالمال الكثير من الضياع والاسباب ولا يمكن حفظ ذلك الا ببجاه وحشمة ولا يتم ذلك الا بمعاونة السلاطين ولا تحصيل معاونتهم الانجدهم ومراعاتهم ومداهمتهم ومراعاتهم ومراعاتهم الى الرياء والظواهر بالظلمة ثم الى المنافسة مع الشركاء والمزاحمين ويتداعى الى الفساد والمداوة والبغضاء وسائر أنواع الخطايا ولذلك كان حب الدنيا رأس كل خطيئة (قال) صلى الله عليه

وسلم شرار أمتي قوم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويشدقون في الكلام وقد سئل أحمد بن حنبل عن الثعال السبئية وهي من الثعال الحسنة فقال أما أنا فلا استعملها ولكن إن كان للعين فارجو وأما من أراد الزينة فلا ولما ولي عمر رضى الله عنه الخلافة كانت له زوجة جميلة فطاعها خيفة أن تشفع إليه فلا يقدر على مخالفتها فلما قوى في الخلافة مته وعلم أنه يقدر على نفسه في مخالفتها طلبها ليجدد نكاحها فكانت قد ماتت وسئل أحمد عن تخصيص الحائط فقال أما تخصيص الأرض فيمنع التراب وأما تخصيص الحائط فزينة وإنكر تخصيص المسجد وتزيينه واستدل بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أن يكحل المسجد (فقال) لا عريش كعريش موسى وإنما هو شيء مثل الكحل يطل به فلم يرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا من رق ثوبه رق دينه وكل ذلك مباح ولكنه يتداعى إلى الحرام على قرب ومن هذا الجنس الاحتراز من الخوض في حديث الناس خوفاً من الانجرار إلى الغيبة والتمية ولذلك وضع الصديق رضى الله عنه حجر آ في فيه (القسم الثالث) ما لا تحريم فيه ولكن يتعارض إلى بعض أسبابه تحريم فكان بشر الحافي لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء والساطين إذ أضر سبب لجرى الماء ووصوله إليه وإن كان الماء مباحاً وكان بعضهم في طريق مكة لا يشرب الماء من مصانع السلاطين وزاد عليه بعضهم فلم يتناول غيب كرم يبقى بهذا الماء وزاد ذوالنون المصري وكان محبوساً بالظلم جائعاً أليماً فبعثت له امرأة طعاماً حلالاً من كسبها بالزول فلم يأكل منه فماتت وقالت علمت أن ذلك كان من حلال فما منعك من أكله فقال جئت على طبق ظالم أى على يد السجان معناه القوة التي ساقته إلى الطعام حصلت من حرام وهذا لا يجزى في بد الفاسق غير الظالم لأن القوة لا تحصل بالزنا والقتل وغير ذلك إنما تحصل بأكل الحرام فتخص بالظلم والسارق وشارب الخمر وعلى الجملة آكل الحرام وكره أحمد كسب الخياط الذي يخيط في المسجد وسئل عن كسب المغازل الذي يجاس في قبة المقابر في وقت يخاف من المعطر فقال المقابر إنما هي من أمر الآخرة وكره ذلك فهذه أقسام الدرجة الثالثة وهي ورع المتقين (الدرجة الرابعة) ورع الصديقين وهو أن يمتزج عن جميع ما هو منفك عن الآفات التي ذكرناها إذا لم يحضره نية في تناولها لله تعالى بل يجتنب ما ليس لله تعالى خالصاً وهؤلاء هم الموحدون المخلصون لا يجركون الله ولا يسكنون الله ولا يتكلمون الله ولا يسكتون الله ولا يشعرون الله ولا يأكلون الله لا للتقوى على عبادة الله تعالى ولا يمشون ولا ينامون الله فإن مشوا في حاجة مسلم أو سعى إلى خير وإن ناموا فلا عادة قوة العبادة ودفع الملل وكذلك في

كل أمورهم القائلون بموجب قوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم) فكل ما ليس لله فهو حرام عندهم وقد روى عن يحيى أنه شرب الدواء فقالت له امرأته لو مشيت خطوات لتسهل الأسهال فقال هذه مشية لا أعرف لها وجهاً وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة وكأنهم لم يحضره نية خالصة في الدين فلم يجوز الإقدام عليها وحكى عن ابن سيرين أنه دعى إلى جنازة الحسن البصري رحمه الله عليه ليصلي عليها فقال ليس يحضرني الآن نية فهذا أقصى درجات الورع وورع العدول أدناها وبينهما درجات لا تحصى في الاحتياط فكل ما كان العبد أشد احتياطاً وتشديداً على نفسه كان أخف ظهر أيام القيامة وأسرع جوازاً على الصراط وأبعد من أن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ونفوات المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات كما يتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام فإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار فإن شئت فاستكثر من الاحتياط وإن شئت فترخص فلتفسك تحتاط وتعلم نفسك تترخص ولم نورد ما أورناه من أقسام ورع المتقين والصديقين بل ورع الصالحين طمعاً في أن تقوم به فإني يسمح آخر الزمان بأمثال أولئك بل لا يسمح إلا بأمثالنا ونحن نعيم جز وإن أتبعنا أفسنا على القيام بورع العدول وهو أدنى الدرجات التي ليس بعدها إلا الفسق والعدوان ورد الشهادة والفتوى والرواية في حق كل من لا يقوم به فاجتهد أن تقوم بهذه الدرجة فأقل درجات العالم أن يكون عسلاً لتقبل روايته وفتواه والام يجز الثقة بقوله ولم يسقط التكليف من المقلد باستفتائه إذ لا يجوز له الاعتماد على فتواه كما لا يجوز الاعتماد على شهادته وروايته فلذلك ما تبقى معه العدالة في تناول أموال السلاطين فإن الحاجة ماسة إليه

الفصل الثالث فيما يأخذه العلماء من أموال السلاطين

اعلم أن مال السلطان ثلاثة أقسام قسم يعلم حله وقسم يعلم تحريمه وقسم هو ملتبس بحجب البحث عنه (القسم الأول) ما يعلم حله وهو أنواع النوع الأول المال المأخوذ من الكفار على سبيل القهر والغلبة والنبي الحاصل منهم من غير قتال وأموال المصالحه المأخوذ بتراضيه أو الجزية المضروبة عليهم على شرط الشرع وقدره فكل ذلك إذا روعي الشرط فيه كان بعضه مرصداً للمصالح فيحل لمن يرتبط به شيء من مصالح الإسلام أن يأخذ منه النوع الثاني الأموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والموارث التي لا مستحق لها من العصابات وأصحاب الفرائض فهذا أيضاً مرصداً للمصالح فما يكتب عليه لأهل العلم من أراد وصلة محل أخذه على وفق المصلحة النوع الثالث الأوقاف الموسعة على الخيرات أو القييدة بشروط معينة إذا كتب عليه مرسوم ولم يكن على خلاف شرط الواقف كان لاخذه

وجه لا محالة النوع الرابع ما يكتب على ضيعة أحيائها السلطان أو اشتراها بالراضى وأدى نفسه فهو مباح فإن كان الثمن قد أدى من الحرام أو أدى أجر لإجراء الأحياء من الحرام فلا يخلو عن شبهة وإن كان لا يحرم تحريماً قاصداً في المعدلة فهذه أنواع الحلال (القسم الثاني) ما يقابل هذا وهو الذى يعلم تحريمه وذلك ما يكتب على الخراج الموظف على المسلمين في جميع بلاد الإسلام فإنه حرام إلا العراق فإن مذهب الشافعى أنه وقف على مصالح المسلمين فمن أخذ من ذلك المال قدر كفايته من العلماء لم يكن عليه حرج وهذه رخصة ترخصنا بها فأخذنا من مال العراق قدرنا نأخذ عن الكفاية للمبالغة في القناعة فرجوا أن يكون ذلك في محل الغفو وإن يكون ذلك أطيب طعمة يكتسبه أهل العلم في هذا الزمان المشوش الطافح بأنواع الحرام وإذا عرفت أن ما يكتب على الخراج من الإدارات حرام فما يكتب على أموال المصادرة والمواقعة حرام وكذلك ما يأخذه الولاة من العمال على سبيل الرشوة فهو سحت لا يجوز أن يؤخذ وبالجمله كل ما أخذوه ظلماً فلا يحنى تحريمه فإذا أنواع الحرام أيضاً ثلاثة الخراج والمصادرة والرشوة (والقسم الثالث) ما هو متبس وهو على أربع درجات الأولى ما يكتب على عامل من العمال فيعطيه نقداً ولا يكتب به الخط على جهة الدخل فلا يحصل حتى يعرف سبب تحريمه أو تحليله فإن كان عاملاً على الخراج وجمع أموال القسمة فهو حرام قطعاً وإن كان عاملاً على الدهقة في أملاك السلطان وللسلطان أملاك مورثة ومشتراة وحماية يعلم حلها فهو حلال وإن كان عاملاً عليهما جميعاً ويعلم اجتماع الحلال والحرام في يده فلا يحنى أن تركه من الورع المهم ولكن إن كان الأكثر حلالاً فلا يقضى بتحريمه نظراً إلى الأكثر وإن كان الأكثر حراماً فيتعين الاحتباب لأن الحكم للأكثر الدرجة الثانية أن يكتب على الخزانة فإن علم من حال السلطان أنه لا مدخل له من الحلال فهو حرام وإن كان له دهقة وتجارة أو في يده أموال المصالح فينبغى أن يحكم فيه أيضاً بالأغلب الأكثر الدرجة الثالثة أن يكتب على بيع يعامل السلطان فإن كان لا يعامل غير السلطان فهو كعامل الخراج وإن كان مع ذلك يعامل الدهاقين والتجار فلا يحرم تناول ماله لأنه ليس يده يد الظالم في الظاهر وأكثر أموال مثل هذا يكون مكتسباً بالراضى وقد كتب وكيل ابن المبارك إليه وسأله عن معاملة من يعامل السلطان فقال إن كان يعامل غير السلطان فعامله وإلا فلا تعامله الدرجة الرابعة ما يعطيه البيع من ماله الخاص فرضاً على السلطان فحكمه حكم ماله لكن يتطرق إليه شبهة تحريم العوض فإن ما يقضى عوضه من مال حرام وإن كان مشترى في الذمة فغير خال عن شبهة وفيه تفصيل

طويل ذكرناه في كتاب الحلال والحرام والشبهات من كتاب الأحياء وكذلك في أموال السلاطين تفصيل أطول من هذا ذكرناه ثمه واقتصرنا الآن على هذا التنبيه (الفصل الرابع في وجوب رد الحلال على السلاطين الظلمة ولزوم التزهد عن ذلك) اعلم أنه قد نقل عن بعض أئمة السلف أخذ جوائز السلطان ولا يشك أنهم كانوا يأخذون ما يعلمون أنه حلال وقد كان الحلال كثيراً في أيدي الولاة في أول العصر وذلك من أموال الكفار في ابتداء فتح البلاد أما في هذا الزمان فلا ينبغي أن يؤخذ منهم ما يعلم حله أيضاً لأن سلاطين هذه الأعصار لا تسمح نفوسهم ببذل شئ ولو من حلال إلى العلماء إلا طمعاً في استخدامهم والتسكثر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الخدمة ولزوم العتبة في كل محفل وجمع حتى أنهم ليزينون مجالس على اسم ختم القرآن وغرضهم استخدام العلماء واستحضارهم تجملاً بكثرتهم واستبائهم فلو لم يذل الآخذ من ماله نفسه بالسؤال أولاً وبالتردد في الخدمة ثانياً وبالثناء والدعاء ثالثاً وبالمساعدة لهم على أغراضهم عند الاستعانة رابعاً وبكثير جمعهم في مواكبهم ومجالسهم خامساً وبإظهار الحب والمودة والمناصرة لهم على أعبائهم سادساً وبالستر على ظلمهم ومقابيحهم ومساوى أفعالهم سابعاً لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في الفضل بدرجة الشافعى مثلاً فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال أيضاً لأفضائه إلى هذه المعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه فادنى ما يلزم من أخذ أموالهم هذه المعاصي مع الدل لعمالهم وكثرة الحاجة في التردد إلى أبوابهم فلا يسلم معه دين من له شفقة على دينه وقد ذكرنا جميع هذه المعاصي من الثناء والدعاء والدخول عليهم وإدخال السرور على قلوبهم حراماً فإى فائدة في مال يجر إلى هذه المخذورات والمخظورات فاقطع طمعك بالكلية عن ماله حرامهم وحلالهم ليس لك دينك والسلام (مسئلة تختم بها هذا الباب) وهذا الكتاب ونبه فيها على دقائق من الورع راعاها السلف في حقوق السلاطين وهو أن يبعث اليك السلطان مالا لفرقه على المساكين قبل الأولى رده أو قبوله وتفرقة فأقول إن كان من وجه حرام وكان يعلم مالكة فلا وجه لأخذه بل يؤمر برده إلى مالكة وإن كان من حلة أموال لا يعرف مالكة فيفتى فيها بأنه ينبغي أن يتصدق بها على المساكين فهذه يأخذ ويفرقه على المساكين فذلك أولى من تركه في يده حتى لا يستعين به على ظلمه ويصرفه إلى فسادده وفسقه ولكن بشرط ألا من من ثلاث غوائل الغالبية الأولى أن لا يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله حلال ولولا ذلك لكانت لا تمد إليه اليد ولا تدخله في ضمانك فإن كان كذلك فلا تأخذه فإن ما يحصل له من الجرأة على كسب الحرام

لا يني بالحير في مباشرتك للتفرقة بنفسك الثانية ان ينظر اليك غيرك من جهال العلماء فيمتقدون بك في الاخذ ويستدلون على جواز الاخذ ثم لا يفرقون فقد تمسك جماعة بأخذ الشافعي مال الحلفاء وذهلوا عن تفرقه وعن أخذه على نية التفرقة وروى ان وهب بن منبه وطاوساً دخلا على محمد بن يوسف أخى الحجاج وكان له عاملاً وكان في غداة باردة فقال لعلامه هلم ذلك الطليسان والقه على طاوس وكان قد قعد على الكرمي فلقاه عليه فلم يزل يحرك كفيه حتى اتى الطليسان فغضب محمد بن يوسف فقال وهب لم اغضبته كنت تقدر على ان تصدق به قال نعم لولا ان يقال من بعدى اخذه طاوس ثم لا يصنع به ما صنع اذا لقمت ذلك الثالثة ان يحرك قلبك الى حبه بتخصيصه اياك وايناره لك بما انفذه اليك فان كان كذلك فلا تقبل فان حب الظالم هو الدم القاتل والداء الدفين فانك اذا احببته فلا بد وان تداهنه وان تحرص على لقائه وتكره عزله وكل ذلك حرام قالت عائشة رضى الله عنها جلبت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها (وقال) عليه الصلاة والسلام اللهم لا تجعل لفاجر على بدأيجه قاي فتيين ان حب القاب يقع ضرورة وان الحب للفاجر محظور وارسل بعض الامراء الى مالك بن دينار عشرة آلاف درهم فاخرجها كلها فقال له محمد بن واسع ماذا صنعت بما اعطاك هذا الخلق فقال سل اصحابي فقالوا اخرجناه كله فقال أنشدك الله اقلبك أشد حباً له الآن أم قبل ان يرسل قال الآن قال انما كنت أخاف هذا ولا شك في ان حبه يفتنى الرضى بهقائه واتساع ولايته وكراهة عزله وموته وكل ذلك رضى بالظلم ومن رضى بالظلم فهو شريك فيه قال الله تعالى (ولا تكونوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) أى لا ترضوا باعمالهم وان كان يبقى قلبه على ما كان عليه من البغض بسبب ظلمه فلا بأس بأخذه فقد قيل لبعض عباد البصرة وكان يفرق أموالاً للسلطان تنفذ اليه الاتخاف ان يحبهم فقال لو أخذ رجل يدي فادخاني الجنة ثم عصى ربه ما أحبه قاي لان الذى سخره للاخذ يدي هو الذى أبغضه لاجله شكراً له على تسخيره إياه هذه خاتمة فائحة العلوم فلنقتصر عليها والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا

مصحفة

- ٢ خطبة الكتاب وبيان ما يشتمل عليه من الابواب
الباب الاول في فضيلة العلم ومذمة علماء سوء وفيه خمسة فصول
٢ الفصل الاول في فضيلة العلم
٣ الفصل الثاني في فضيلة طلب العلم
٤ الثالث في فضيلة الارشاد والتعليم
الرابع في الشواهد العنصرية الدالة على شرف العلم والتعليم
٧ الفصل الخامس في مذمة علماء سوء وسوء حالهم عند الله
٨ الباب الثاني في تصحيح الثبة في طلب العلم
١٧ الباب الثالث في العلامة الفاصلة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة
٢٩ فصل يشتمل على نبذ من سير أئمة المذاهب
٣٥ الباب الرابع في أقسام العلوم وفيه فصول
٣٨ الفصل الاول في أقسام العلوم
٣٨ الفصل الثاني في بيان فروض الايمان من جملة العلوم
٢٩ الفصل الثالث فيها هو فرض كفاية من العلوم
٤٣ الفصل الرابع في بيان تفضيل علوم الآخرة
٤٣ الفصل الخامس في بيان العلم الاقصى ونسبة العلوم اليه
٤٧ الباب الخامس في شروط المناظرة وآفات المناظرة
٤٩ بيان شروط المناظرة
٥٢ بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الاخلاق
٥٣ الباب السادس في آداب المعلم والمتعلم ووظائفهما
٦٠ القول في وظائف العلم وآدابه
٦٢ الباب السابع فيما يحل للعلماء أخذه من الاموال وفيه فصول
٦٣ الفصل الاول في فضل الورع
٦٤ الثاني في درجات الورع
٦٧ الثالث فيما يأخذه العلماء من الاموال
٦٩ الرابع في وجوب أموال الظلمة ولزوم التزهد عنها
٦٩ خاتمة للباب والكتاب تشتمل على دقائق من الورع

اعلان

عن بعض ما تيسر لنا طبعه من كتب الأئمة الاعلام

- | | |
|--|---------------------|
| المقصد الاسنى شرح أسماء الله الحسنى | للفزالى |
| الحكمة في مخلوقات الله تعالى | له أيضا |
| الاقتصاد في الاعتقاد | له أيضا |
| فصل التفرقة بين الاسلام والزندقة | له أيضا |
| محك النظر في صناعة المنطق | له أيضا |
| القسطاس المستقيم في الرد على الباطنية | له أيضا |
| منهاج العابدين | له أيضا |
| فاتحة العلوم وهى هذه | له أيضا |
| ميزان العمل | (تحت الطبع) له أيضا |
| مقياس العلوم في المنطق | (تحت الطبع) له أيضا |
| الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم وبهامشه كتاب الملل والنحل للشهرستانى | |
| الصناعيين (صناعة النظم والنثر) لابی هلال العسكري | |
| اللاى المصنوعة في الاحاديث الموضوعة للسيوطى | |
| شرح شواهد المغنى للسيوطى | |
| الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية | |
| الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى | |
| محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين للرازى مع نقده | |
| لاطوسى وبهامشه كتاب معالم أصول الدين للرازى | |
| الاشباه والنظائر الفقهية لابن نجيم | |
| رشيحات الاقلام شرح كفاية الغلام للنايلسى | |
| الفارق بين المخلوق والخالق وبهامشه كتاب الاجوبة الفاجره عن الاسئلة | |
| الفاجره للامام القرافى | |
| وكتاب هداية الحيارى من اليهود والنصارى لابن القيم الجوزيه | |

(اطلبو من مكتبة محمود علي صبيح واخيه محمد عبيدان الازهر)

طبقات الشعراء للجاهليين والاسلاميين
المفصل في اللغة العربية للزحشرى قاموس في اسرار اللغة العربية
الامالى : فى علوم التفسير : والحديث : والادب اربعة اجزاء
اكام المرجان : فى غرائب وعجائب الجان
درة التنزيل . وغرة التاويل . فى الايات المتشابهات فى القرآن الجليل
مواسم الادب . واثار العرب والعجم جزان
رياض النظر فى تاريخ الخلفاء ومناقب العشرة جزان
مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزيه جزان
سلافة العصر . فى محاسن الشعراء بمصر
شرح فصوص حكم العرب للفيلسوف القرائى
المصناعتين فى الكتابة والشعر
الشفاء فى الاحاديث وعليه شرح لملا على طبع عال جزان
سلوك المالك فى تدبير الممالك
تميز الطيب . من الخبيث فى الاحاديث
مسك الدفاتر . تاليف ابراهيم بك سلامة
ارشاد الفحول . فى علم الاصول لصاحب نيل الاوتار
المهدي السعدي فى الحكمة والفلسفة
السيرة النبوية لابن هشام ثلثه اجزاء من الورق الابيض العال
دلایل الاعجاز فى علوم البلاغة
ويوجد بالمكتبة كتب من كل فن خلاف الموضح
محمود علي صبيح واخيه